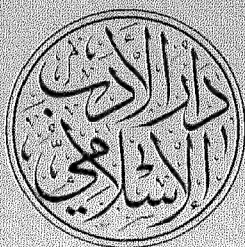


البطولة

للشجاعة سِمَاتٌ قد يتحلَّى بها قُطَّاعُ الطُّرُق ...
هل البُطُولَةُ هي الشَّجَاعَةُ ؟ !!
هل كُلُّ شَجِيحٍ بطل ؟ !!



الشيخ محمد عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الوهاب

البطولة

البطولة

للشجاعة سمات قد يتحلى بها قطاع الطرق ...

• فهل البطولة هي الشجاعة !!؟

• وهل كل شجاع بطل !!؟

الدكتور عبد الرحمن أفضال باشا

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م



جميع الحقوق محفوظة (الطبعة الأولى ١٧١٤هـ - ١٩٩٦م)

إن حقوق التأليف والنشر محفوظة لورثة المؤلف فقط دون سواهم ، ولا يجوز إعادة طبع هذا الكتاب كلياً أو جزئياً أو تخزينه في أي نظام لحزن المعلومات واسترجاعها ، أو نقله على أي هيئة أو بآلة وسيلة ، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو استنساخاً أو تسجيلاً ، أو الترجمة لأي لغة أخرى ، أو تحويله إلى عمل إذاعي أو مرئي ، أو غيرهما ، إلا بإذن كتابي من أصحاب الحق الشرعي ... ويمكن استخدام الكتاب كوحدة متكاملة وبإسم مؤلفه كمرجع دراسي ، كما يمكن الاقتباس منه وذكره كمرجع .

(وإدار الأدب الإسلامي) بصفتها المخول الوحيد عن ورثة المؤلف بطباعة ونشر وتوزيع كتب الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا - رحمه الله - تحذر من التعامل بأي طبعة غير مشروعة .

الفهرسة في النشر

٨١٨ / ع • ب

عبد الرحمن رأفت الباشا (١٩٢٠ - ١٩٨٦م)

البطولة - [ليماسول]: دار الأدب الإسلامي ، ١٤١٧هـ [١٩٩٦م]

٩٥ ص ١٢٠ سم .

رقم الإيداع : ٥٣٩١ / ١٩٩٦م

الإعداد الفني والجمع التصويري بدار الأدب الإسلامي
المراجعة اللغوية الأستاذ رزق هبة

دار الأدب الإسلامي

شركة ذات مسئولية محدودة

ليماسول - ص.ب : ٣١١٠ قبرص القاهرة - ص.ب ٨١

هاتف : ٣٦٩٣٣٦ - ٥ - ٣٥٧ بريد بانوراما ١١٨١١ ج.م.ع

فاكس : ٣٦٩٣٣٦ - ٥ - ٣٥٧ هاتف : ٢٦٦٠١٦٤ - ٢٠٢

كلمة الناشر

نحمد الله حمداً كثيراً على نعمه أن يسر لنا السبل لخدمة الإسلام ولغة القرآن ، راجين من العلي القدير أن يمدنا بالعون لمتابعة هذا العمل الجليل .

إن كتاب البطولة هذا هو أول كتاب يصدر للمؤلف بعد وفاته ، وسوف نسعى جاهدين بإذن الله وتوفيقه بإصدار ما تركه المؤلف - رحمه الله - من تراثه العلمي الذي يتسم بعمق الفكرة ، وسلاسة الأسلوب ، وإيجاز العبارة .

كما سنقوم بإعادة ما قد تم طباعته سابقاً بعد عمل بعض التعديلات الفنية في الإخراج ، وعمل التصحيحات والإضافات التي أشار إليها المؤلف - رحمه الله - .

ولا يفوتنا أن ننبه القارئ الكريم إلى أننا أصحاب الحق الوحيدين لنشر وطباعة وتوزيع جميع كتب الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا بالصورة التي بين يديك .

كما نشكر قارئنا الكريم على اختيار أحد منشوراتنا ونطلب منه العون في إبداء الرأي والإشارة لأي خطأ قد يرد لكي تعم الفائدة ... والله من وراء القصد .

الناشر

يمان عبد الرحمن رأفت الباشا

رضوان عبد الرحمن رأفت الباشا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَمْهِيد

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنُثْنِي عَلَيْهِ
الْتِّنَاءَ كُلَّهُ . وَنُصَلِّي وَنُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّهِ وَصَفْوَةِ خَلْقِهِ
مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ صَانِعِ الْأَبْطَالِ ، وَمُعَلِّمِ الرِّجَالِ .
وَبَعْدُ ... فَمَا هَذَا الَّذِي أَسُوقُهُ لَكُمْ بِمُحَاضَرَةٍ
أَوْ بَحْثٍ ...

وَلَاِنَّمَا هُوَ حَدِيثٌ يَنْبُعُ مِنَ الْقَلْبِ رَجَاءً أَنْ يَجِدَ
طَرِيقَهُ إِلَى الْقُلُوبِ ...

فَفِيهِ مِنَ الْمَشَاعِيرِ وَالْعَوَاطِفِ ، الَّتِي تَلِيقُ

بِالْأَسْمَارِ أَكْثَرُ مِمَّا فِيهِ مِنَ الدُّرِّسِ وَالْبَحْثِ الَّذِي
تَتَّسِمُ بِهِ الْمُحَاضَرَاتُ ...

* * *

وَرُبَّ قَائِلٍ يَقُولُ :

أَفِي مَصْنَعٍ مِنْ مَصَانِعِ الْأَبْطَالِ ، وَمَنْبِتٍ مِنْ
مَنْابِتِ الرِّجَالِ ، جِئْتُ تَشْوِقُ الْحَدِيثَ عَنِ
الْبُطُولَةِ ١٩

أَفَلَا تَخْشَى أَنْ تَكُونَ فِي صَنِيعِكَ هَذَا
كَمُهْدِي الْمَاءِ إِلَى الْبَحْرِ ، أَوْ نَاقِلِ الثَّمَرِ إِلَى
هَجَرَ (١) ؟

وَنَحْنُ نُبَادِرُ فَنَقُولُ :

إِنَّ الْحَدِيثَ عَنِ الْبُطُولَةِ وَالْأَبْطَالِ شَهِيٌّ إِلَى
كُلِّ نَفْسٍ ، حَبِيبٌ إِلَى كُلِّ قَلْبٍ ...

(١) هجر : بلد على الخليج العربي مشهورة بإنتاج التمر .

يَسْتَوِي فِي الشُّوقِ إِلَيْهِ الْكِبَارُ وَالصُّغَارُ ،
وَالنِّسَاءُ وَالرِّجَالُ ...

لَا تَمَلُّ الْأَسْمَاعُ رِوَايَتَهُ وَلَا يُخْلِقُ^(١) التَّكَرَّارُ
جِدَّتَهُ .

فَفِي ذَاتِ كُلِّ مِثْلٍ بَطْلٌ مُسْتَكِرٌّ فِي ضَمِيرِهِ .
فَهُوَ إِمَّا أَنْ يُحَقِّقَهُ فِي وَاقِعِ حَيَاتِهِ ...
وَلِمَّا أَنْ يَصْنَعَهُ بِخَيَالِهِ وَأَشْوَاقِهِ .

وَمَا يُقَالُ فِي هَذَا الصَّدَدِ عَنِ الْأَفْرَادِ ، يُقَالُ عَنِ
الشُّعُوبِ أَيْضاً ...

فَهِيَ مَا تَزَالُ تَبْحَثُ فِي حَيَاتِهَا عَنِ الْبَطْلِ فِي
كُلِّ مَجَالٍ ...

فَإِنْ لَمْ تَجِدْهُ فِي الْحَقِيقَةِ ؛ اخْتَرَعَتْهُ مِنْ خَيَالِهَا
اخْتِرَاعاً ...

(١) يخلقه التكرار : يجعله بالياً قديماً .

ثُمَّ أَلْصَقَتْ بِهِ مِنْ رَوَائِعِ الْبُطُولَاتِ مَا لَا يُصَدِّقُهُ
عَقْلٌ وَلَا يُقَرُّهُ مَنْطِقٌ .

حَتَّى إِذَا غَدَا هَذَا الَّذِي أَلْصَقَتْهُ بِأَبْطَالِهَا عَلَى مَرِّ
الْأَيَّامِ فِي نَظَرِهَا حَقِيقَةً لَا تَقْبَلُ الْجَدَلَ ... أَلْهَتْ
الْبَطْلَ وَعَبْدَتُهُ كَمَا فَعَلَ « الْيُونَانُ » وَ« الرُّومَانُ »
بِأَبْطَالِهِمْ .

* * *

البُطُولَةُ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ

لَكِنَّا - نَحْنُ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ - لَسْنَا بِحَاجَةٍ
لِأَنْ نَخْتَرِعَ الْأَبْطَالَ لِأَنفُسِنَا اخْتِرَاعاً ...
وَلَا أَنْ نَبْتَدِعَ^(١) لَهُمُ الْبُطُولَاتِ مِنْ عِنْدِنَا
اِئْتِدَاعاً .

فَتَارِيحُنَا - كَمَا يَشْهَدُ الْمُؤَرِّخُونَ - مِنْ أَحْقَلِ
تَوَارِيخِ الْأُمَمِ بِالْبُطُولَاتِ وَأَعْنَاهَا بِالْأَبْطَالِ .
وَهِيَ بُطُولَاتٌ عَلَى فِئَادَتِهَا^(٢) وَرَوْعَتِهَا حَقَائِقُ
وَأَقْعَةٌ مُوثَّقَةٌ بِالْأَسَانِيدِ ...

(١) نبتدع: نأتي ببذعة، وهي الشيء المستحدث .

(٢) الفذ: الفرد المتميز .

رَوَتْهَا فِي الْكَثِيرِ الْغَالِبِ جُمُوعٌ عَنْ جُمُوعٍ ،
تُحِيلُ الْعَادَّةُ تَوَاطُؤَهُمْ عَلَى الْكَذِبِ .

وَمَا ذَلِكَ أَيْهَا السَّادَةُ ، إِلَّا لِأَنَّ تَارِيخَنَا يَمْتَنَزُ
مِنْ تَوَارِيخِ الْأُمَمِ الْأُخْرَى بِمِيزَاتٍ ثَلَاثٍ :

● أُولَاهَا : أَنَّهُ تَارِيخٌ طَوِيلٌ ؛ دَامَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ
قَرْنًا ، تَتَابَعَتْ خَلْقَاتُهَا مِنْ غَيْرِ انْقِصَامٍ^(١) ...

وَاتَّصَلَ آخِرُهَا بِأَوَّلِهَا بِرِبَاطٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ أَجَلٌ
كِتَابٍ ، وَحَبْلٍ مِنْ لُغَةِ الْقُرْآنِ أَكْرَمِ اللُّغَاتِ .

مِمَّا جَعَلَ السَّلَفَ يَعِيشُونَ تَجَارِبَ الْخَلْفِ
عَلَى الدَّوَامِ ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي تَكَاثُرِ الْبُطُولَاتِ
لَدَيْنَا وَتَنَوُّعِهَا .

● وَثَانِيَةُ هَذِهِ الْمِيزَاتِ مِنْ مِيزَاتِ تَارِيخِنَا هِيَ :

(١) من غير انقصاص : من غير انقطاع .

أَنَّهُ تَارِيخٌ عَرِيضٌ ؛ ذَلِكَ لِأَنَّهُ تَارِيخُ أُمَّةٍ امْتَدَّتْ مِنْ
الْمُحِيطِ إِلَى الْمُحِيطِ .

وَأَنْضَوْتُ^(١) تَحْتَ لُؤَاءِ قُرْآنِهَا أُمَمٌ وَسُغُوبٌ
لَهَا مِنَ الْكِفَايَاتِ ، وَالطَّاقَاتِ ، وَالْمَآثِرِ ، وَالْمَفَاخِرِ
مَا يَفُوقُ كُلَّ تَقْدِيرٍ .

وَأَنْصَهَرْتُ فِيهَا أَلْوَانٌ وَأَعْرَاقٌ لَمْ تَجْتَمِعْ لِأُمَّةٍ
مِنْ قَبْلُ ...

فَفِيهَا الْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ وَالْأَصْفَرُ ...

وَفِيهَا الْعَرَبِيُّ وَالْعَجَمِيُّ .

مِمَّا أَمَدَّهَا بِفَيْضٍ زَاخِرٍ مِنْ أَفْذَاذِ الرِّجَالِ فِي
كُلِّ مَجَالٍ مِنْ مَجَالَاتِ الْحَيَاةِ ...

وَمَنْحَهَا ثُرُوءًا مِنَ الْأَبْطَالِ فِي مَيَادِينِ الْحُكْمِ

(١) انضوت : انضمت ودخلت .

وَالْعِلْمَ ، وَالْحَرْبَ وَالسَّلَامَ ، وَالْجُزْأَةَ وَالْحَزْمَ ،
وَالْبَذْلَ^(١) وَالْإِيْثَارَ^(٢) ، وَالزَّهَادَةَ^(٣) وَالْعِبَادَةَ ،
مَا تَتَمَنَّى بَعْضُهُ كُلُّ أُمَّةٍ مِنْ أُمَّمِ الْأَرْضِ .

• وَثَالِثُهَا : أَنَّهُ عَمِيقٌ ؛ لِأَنَّ دَوْلَتَهُ كَانَتْ تَقُومُ
عَلَى الْعَقِيدَةِ ...

وَالدَّوْلَةُ حِينَ تَقُومُ عَلَى الْعَقِيدَةِ تَحْفَلُ حَيَاتُهَا
بِالْبُطُولَاتِ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ وَصِنْفٍ .

* * *

(١) البذل : العطاء .

(٢) الإيثار : التقصيل .

(٣) الزهادة : الزهد وهي التخلي والإعراض .

البُطُولَةُ لُغَةً وَاضْطِلَاحاً

وَالآن : مَنِ الْبَطْلُ ؟ ... وَمَا الْبُطُولَةُ ؟ ...

مَا تَحْدِيدُهُمَا ؟ ... وَمَا تَعْرِيفُهُمَا ؟ ...

أَمَّا اللَّغَوِيُّونَ فَيَقُولُونَ عَلَى لِسَانِ شَيْخِهِم ابْنِ
مَنْظُورٍ ... الْبَطْلُ : الشُّجَاعُ .

وَقَدْ بَطَلَ الرَّجُلُ يَبْطُلُ بُطُولَةً أَيْ صَارَ
شُجَاعاً ...

لَكِنَّ اللَّغَوِيِّينَ حَازُوا فِي تَغْلِيلِ تَسْمِيَةِ الشُّجَاعِ
بِهَذَا الْإِسْمِ ؛ ذَلِكَ أَنََّّهُمْ نَظَرُوا فِي مَادَّةِ (بَطَلَ)
فَوَجَدُوهَا تَدُلُّ عَلَى الذَّهَابِ وَالضُّيَاعِ ، وَالْخُسْرَانِ ،
وَالْكَذِبِ وَالْهَزْلِ .

فَالْبَاطِلُ هُوَ : نَقِيضُ الْحَقِّ .

وَالْبَطَالَةُ هِيَ : اتِّبَاعُ اللَّهِوِ وَالْمُجُونِ .

وَالْبُطْلُ هُوَ : الْكَذِبُ ...

فَمَا الْعَلَاقَةُ بَيْنَ الْبُطُولَةِ وَبَيْنَ هَذِهِ الْمَعَانِي ؟ .

لَقَدْ أَجَابَ اللُّغَوِيُّونَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ بَعْضُهُمْ :

إِنَّمَا سُمِّيَ الْبُطْلُ بَطْلًا لِأَنَّهُ يُبْطِلُ الْعِظَائِمَ
بِسَيْفِهِ وَيُزِيلُهَا بِشَجَاعَتِهِ ، وَيَجْعَلُهَا بَهْرَجًا^(١) زَائِفًا .

وَقَالَ بَعْضُهُمُ الْآخَرُ :

إِنَّمَا دُعِيَ الْبُطْلُ بَطْلًا لِأَنَّ الْأَشِدَّاءَ يَبْطُلُونَ
أَمَامَهُ فَلَا يُسَاوُونَ عِنْدَهُ شَيْعًا .

وَقَالَ فَرِيقٌ ثَالِثٌ :

(١) البهرج : الباطل المزيف .

إِنَّمَا أُطْلِقَ عَلَى الشُّجَاعِ اسْمُ الْبَطْلِ لِأَنَّهُ تُهَدَرُ
عِنْدَهُ دِمَاءُ الْأَقْرَانِ^(١) وَتَبْطُلُ فَلَا يُدْرِكُ لَدَيْهِ ثَأْرُ .

وَإِذَا تَرَكْنَا الْمُعْجَمَاتِ الْعَرَبِيَّةَ وَذَهَبْنَا إِلَى
الْمُعْجَمَاتِ الْأُورُيَّةِ ، وَجَدْنَا أَنَّ الْقَوْمَ فَسَّرُوا الْبَطْلَ
بِالشُّجَاعِ أَيْضاً ، وَلَمْ يَزِيدُوا شَيْئاً عَلَى مَا قَالَهُ عُلَمَاؤُنَا
فِي هَذَا الْمَجَالِ .

* * *

فَهَلِ الْبَطُولَةُ هِيَ الشُّجَاعَةُ ؟ ...

وَهَلْ كُلُّ شُّجَاعٍ بَطْلٌ ؟

لَا رَيْبَ^(٢) فِي أَنَّ الْجَوَابَ عَلَى ذَلِكَ
بِالنُّقْيِ ...

فَلَيْسَ كُلُّ شُّجَاعٍ بَطْلاً ...

(١) الْأَقْرَانُ : جَمْعُ قَرْنٍ بِكسْرِ الْقَافِ ، وَقَرْنُ الرَّجُلِ : الْبَطْلُ الْمِثَالُ .

(٢) لَا رَيْبَ : لَا شَكَّ .

وَلَيْسَتْ كُلُّ شَجَاعَةٍ بُطُولَةً ...

أَرَأَيْتَ إِلَى كِبَارِ قُطَاعِ الطُّرُقِ ، وَقَرَاصِنَةِ الْبِحَارِ
مِمَّنْ عَرَفَهُمُ التَّارِيخُ فِي الْغَايِرِ^(١) ؟ ...

وَالِإِلَى الْمَشَاهِيرِ مِنَ الشُّطَاةِ عَلَى الْمَصَارِفِ ،
وَمُخْتَطِفِي الطَّائِرَاتِ فِي عَصْرِنَا الْحَاضِرِ ؟ ...

إِنَّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ يَتَحَلَّوْنَ جَمِيعًا بِشَجَاعَةٍ فَذَّةٍ
نَادِرَةٍ ...

وَلَكِنَّهُ لَمْ يَخْطُرْ بِنَالِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ أَنَّ
يُسَمِّيَهُمْ أَبْطَالًا .

إِذَنْ فَلَيْسَتْ الْبُطُولَةُ هِيَ الشُّجَاعَةُ .

وَلِئِنَّمَا الشُّجَاعَةُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ الْبَطْلِ
لَا أَكْثَرُ ...

(١) الغاير: الزمن الماضي .

وَعَلَى هَذَا فَكُلُّ بَطْلٍ شُجَاعٌ ...

وَلَيْسَ كُلُّ شُجَاعٍ بَطْلاً ...

* * *

وَمِذَا نَحْنُ تَرَكْنَا مُعْجَمَاتِ اللُّغَةِ ، وَانْتَقَلْنَا إِلَى
مُعْجَمَاتِ الْمُصْطَلَحَاتِ وَدَوَائِرِ الْمَعَارِفِ وَفَتَّشْنَا
فِيهَا عَنْ تَحْدِيدِ لِمَعْنَى الْبُطُولَةِ وَمَذَلُولِ الْبَطْلِ ...

لَمْ نَخْرُجْ مِنْهَا بِمَا يَشْفِي الْعَلِيلَ ...

فَهِىَ تُفَسِّرُ الْبُطُولَةَ بِكَلَامِ رَجَرَجٍ^(١) ...

يَتَّسِعُ مِنْ نَاحِيَةٍ ، حَتَّى يَشْمَلَ مَا لَيْسَ
بِبُطُولَةٍ ...

وَيَضِيقُ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى ، حَتَّى لَا تَدْخُلَ فِيهِ
جَمِيعُ ضُرُوبِ الْبُطُولَاتِ .

(١) الرجراج : المضطرب الذي لا يثبت على حال .

وَلَعَلَّ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ هُوَ أَنَّ الْبُطُولَةَ مَعْنَى مِنَ
الْمَعَانِي الْجَلِيلَةِ الْعَظِيمَةِ ، الَّتِي تَعَزُّ^(١) عَلَى التَّعْرِيفِ
وَيَضِيقُ عَنْهَا التَّحْدِيدُ .

* * *

(١) تعز على التعريف : يتعذر تعريفها .

مَعَالِمُ الْبُطُولَةِ

عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْمَعْنَى الْوَاسِعِ لِلْبُطُولَةِ إِلَّا أَنَّنَا
سَنُحَاوِلُ أَنْ نُحَدِّدَ لِلْبُطُولَةِ إِطَاراً تُبْرِزُ^(١) مِنْ خِلَالِهِ
أَهَمُّ مَعَالِمِهَا ...

وَنُلِمْ بِأَكْبَرِ الْبَوَاعِثِ الَّتِي تَبْعَثُ عَلَيْهَا فَتَقُولُ :
« إِنَّ الْبُطُولَةَ - كَمَا بَدَتْ لَنَا - كُلُّ مَوْقِفٍ
رَاضٍ قَدْ مِنْ مَوَاقِفِ الْحَيَاةِ ، بَعَثَتْ عَلَيْهِ غَايَةً جَلِيلَةً
نَيْلَةً » .

فَانْدَفَعَ إِلَيْهِ الْبَطْلُ فِي لَحْظَةٍ مِنْ لَحْظَاتِ
الشُّمُوِّ عَلَى كُلِّ مَا يَخْضَعُ لَهُ النَّاسُ مِنْ رَغْبَةٍ ؛

(١) تُبْرِزُ : تُظْهِرُ وَتُبَيِّنُ .

أَوْ رَهْبَةٍ ... إِخْلَاصاً لِمَا آمَنَ بِهِ مِنَ الْقِيَمِ وَالْمُثَلِّ .
وَعَلَى هَذَا فَلِلْبُطُولَةِ بَوَاعِثُ شَتَّى تَبْعَثُ
عَلَيْهَا ...

وَعَلَى هَذَا أَيْضاً فَلَيْسَتْ الْبُطُولَةُ مَقْصُورَةً عَلَى
الْمَوَاقِفِ الرَّائِعَةِ الْفَدَّاءِ الَّتِي يَأْتِي بِهَا الْأَبْطَالُ فِي
سَاحَاتِ الْوَعْيِ^(١) ...

وَلِإِنَّمَا هِيَ ضُرُوبٌ وَالْوَأْنُ .

* * *

(١) ساحات الوعي : ساحات الحرب .

بَوَاعِثُ الْبُطُولَةِ وَضُرُوبُهَا

فَلْتَبَدَأْ بِاسْمِ اللَّهِ وَعَلَى بَرَكَتِهِ بِإِيرَادِ أَهَمِّ
الْبَوَاعِثِ الَّتِي تَبْعَثُ عَلَى الْبُطُولَاتِ .

وَلْتَضْرِبْ لِكُلِّ بَاعِثٍ مِنْهَا مَثَلًا مِنْ تَارِيخِنَا
الْثَرِيِّ الْغَنِيِّ .

١ - الْإِيمَانُ بِاللَّهِ

لَا رَيْبَ فِي أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ يَقِفُ
عَلَى قِمَّةِ الْبَوَاعِثِ الَّتِي تَبْعَثُ عَلَى الْبُطُولَةِ ...

ذَلِكَ لِأَنَّ الْإِيمَانَ الْحَقَّ قُوَّةَ مُبْدِعَةِ خَلْقَةٍ
إِذَا مَسَّتِ الْقُلُوبَ بِسِحْرِهَا ...

اهْتَزَّتْ بِأَرْوَاحِ الشَّمَائِلِ (١) ...
وَرَبَّتْ بِأَجَلِ الْخَصَائِلِ ...
وَأَنْبَتَتْ مِنَ الْبُطُولَاتِ أَجْلَهَا (٢) تَضْجِيَةً
وَفِدَاءً ...
وَأَسْخَاها بَذْلاً وَعَطَاءً ...
وَأَبْقَاهَا عَلَى الدَّهْرِ .

* * *

وَتَارِيخُنَا الْإِسْلَامِيَّ حَافِلٌ بِهَذَا اللَّوْنِ مِنْ
الْبُطُولَاتِ ، غَنِيٌّ بِهَا غِنًى يَفُوقُ كُلَّ تَقْدِيرٍ ...
فَلَقَدْ عَرَفَهَا الْمُسْلِمُونَ مِنْذُ الْأَيَّامِ الْأُولَى الَّتِي
بَرَّغَ (٣) فِيهَا فَجْرُ الدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ فِي بَطْحَاءِ
مَكَّةَ ...

(١) الشَّمَائِلُ : الخصال والصفات . (٣) بَرَّغَ : بدأ ظهوره .
(٢) أَجْلَهَا : أعظمها .

وَصَاحِبُوهَا عَبَّرَ تَارِيخِيهِمُ الطَّوِيلَ إِلَى يَوْمِ النَّاسِ
هَذَا ...

وَسَتَبْقَى بِإِذْنِ اللَّهِ سِمَةٌ (١) مِنْ سِمَاتِ الْأُمَّةِ
الْإِسْلَامِيَّةِ، حَتَّى يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا.

وَنَحْنُ لَنْ نَضْرِبَ مَثَلًا لِهَذَا اللَّوْنِ مِنَ الْبُطُولَةِ،
وَلَا لِغَيْرِهِ ... مِنْ حَيَاةِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ، عَلَى
الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ حَيَاتَهُ كُلَّهَا مَلْحَمَةٌ (٢) مِنْ أَرْوَاحِ
الْمَلَاحِمِ الَّتِي ارْزَدَانُ بِهَا مَفْرُقُ (٣) التَّارِيخِ ...

ذَلِكَ لِأَنَّنَا لَا نُرِيدُ أَنْ نُطْلِقَ عَلَى الرَّسُولِ
الْعَظِيمِ ﷺ لَقَبَ الْبَطْلِ كَمَا فَعَلَ «كَارْلِيلُ» (٤)
وغيره ...

(١) السيمة : العلامة .

(٢) الملحمة : عمل شعري كبير ينظم في وصف الحروب وجيوشها وأبطالها .

(٣) مفرق الرأس : مكان فرق الشعر .

(٤) كارليل Carlyle: مستشرق إنجليزي، كان من مدرسي العربية في
بلاده .

فَصِفَةُ الْبُطُولَةِ لَا تَرْفَعُ مِنْ شَأْنِ النَّبِيِّ
الْكَرِيمِ ﷺ وَلَا تُغْلِي مِنْ قَدْرِهِ شَيْئًا ...
فَحَسْبُهُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ...

وَحَسْبُهُ أَنَّهُ أَبُو الْأَبْطَالِ ، وَصَانِعُهُمْ عَلَى عَيْنِهِ .
وَلِنَّمَا سَنَنْتَرِغُ أَمْثَلَتْنَا مِنْ تَلَامِيذِ مَدْرَسَةِ مُحَمَّدٍ
صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

* * *

وَنَحْنُ لَنْ نَنْسَى فِي هَذَا الْمَجَالِ بِلَالًا وَحَبَابًا
وَسُمَيَّةَ^(١) ، فَهَذِهِ أَسْمَاءٌ لَا تُنْسَى ...
لَكِنَّا لَنْ نَتَحَدَّثَ عَنْ بُطُولَاتِ هَؤُلَاءِ ...
فَبُطُولَاتُهُمْ مُسْتَكِنَّةٌ فِي ضَمِيرِ كُلِّ مُسْلِمٍ ...

(١) انظرهم في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب
الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

مَائِلَةٌ لِعَيْنِ كُلِّ مُؤْمِنٍ .

وإِنَّمَا سَنَعْرِضُ لِبَطْلٍ آخَرَ مِنْ أَتْرَابِهِمْ ^(١) أَقَلُّ
مِنْهُمْ شُهْرَةً ذَلِكَمُ الْبَطْلُ هُوَ :

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَدَّافَةَ السَّهْمِيِّ ^(٢) ...

لَقَدْ قُدِّرَ لِابْنِ الصَّخْرَاءِ هَذَا ؛ أَنْ يَطَأَ بِلَاطِي
عَظِيمِي الدُّنْيَا فِي عَصْرِهِ ؛ « كِسْرَى » وَ « قَيْصَرَ » ،
وَأَنْ يَكُونَ لَهُ مَعَ كُلِّ مِنْهُمَا مَوْقِفٌ لَا يُنْسَى ...

وَالَّذِي يَغْنِينَا الْآنَ هُوَ مَوْقِفُهُ مَعَ « قَيْصَرَ » عَظِيمِ
الرُّومِ ...

فَمَا قِصَّةُ هَذَا الْمَوْقِفِ ؟

* * *

(١) أترابهم : لدائهم وأصحابهم .

(٢) اقرأ قصته مع كسرى ملك الفرس في كتاب « صور من حياة الصحابة »
للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

فِي السَّنَةِ الثَّاسِعَةِ عَشْرَةَ لِلْهِجْرَةِ بَعَثَ عُمَرُ بْنُ
الْخَطَّابِ جَيْشاً لِحَرْبِ الرُّومِ فِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَذَافَةَ
السَّهْمِيُّ ...

وَكَانَ قَيْصَرُ عَظِيمِ الرُّومِ قَدْ تَنَاهَتْ ^(١) إِلَيْهِ
أَخْبَارُ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ، وَمَا يَتَحَلَّلُونَ ^(٢) بِهِ مِنْ صِدْقِ
الْإِيمَانِ، وَرُسُوحِ الْعَقِيدَةِ، وَاسْتِرْخَاصِ النَّفْسِ
وَالنَّفِيسِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .

فَأَمَرَ رِجَالَهُ إِذَا ظَفِرُوا بِأَسِيرٍ مِنْ أَسْرَى
الْمُسْلِمِينَ السَّابِقِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ أَنْ يُثَقُّوا عَلَيْهِ،
وَأَنْ يَأْتُوهُ بِهِ حَيًّا ...

وَشَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقَعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَذَافَةَ السَّهْمِيُّ
أَسِيراً فِي أَيْدِي الرُّومِ؛ فَحَمَلُوهُ إِلَى مَلِكِهِمْ ...

(١) تناهت إليه : بلغت .

(٢) يتحللون به : يتصفون به .

وَقَالُوا: إِنَّ هَذَا مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ السَّابِقِينَ
إِلَى دِينِهِ ، وَقَدْ وَقَعَ أَسِيرًا فِي أَيْدِينَا ؛ فَأَتَيْنَاكَ بِهِ .

* * *

نَظَرَ مَلِكُ الرُّومِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خُذَافَةَ طَوِيلًا
ثُمَّ بَادَرَهُ قَائِلًا :

إِنِّي أَعْرِضُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَنَصَّرَ ... فَإِنْ فَعَلْتَ ؛
أَطْلَقْتُ سَرَاحَكَ ، وَأَشْرَكْتُكَ فِي مُلْكِي ، وَقَاسَمْتُكَ
سُلْطَانِي .

فَتَبَسَّمَ الْأَسِيرُ الْمُكَبَّلُ^(١) فِي قُبُودِهِ وَقَالَ :

وَاللَّهِ لَوْ أَعْطَيْتَنِي جَمِيعَ مَا تَمْلِكُ ، وَجَمِيعَ
مَا مَلَكَتُهُ الْعَرَبُ ، عَلَى أَنْ أَرْجِعَ عَنْ دِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ
طَرَفَةً عَيْنٍ^(٢) مَا فَعَلْتُ .

(١) المكبل : المقيد .

(٢) طرفة عين : بمقدار ما يتحرك جفن العين .

قَالَ : إِذْنُ أَقْتُلُكَ .
قَالَ : أَنْتَ وَمَا تُرِيدُ .
ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَصَلَبَ ...
وَقَالَ لِقَنَاصَتِهِ - بِالرُّومِيَّةِ - :
ارْمُوهُ قَرِيباً مِنْ يَدَيْهِ ...
وَهُوَ يَغْرِضُ عَلَيْهِ التَّنَصُّرَ فَأَتَى .
فَقَالَ : ارْمُوهُ قَرِيباً مِنْ رِجْلَيْهِ ...
وَهُوَ يَغْرِضُ عَلَيْهِ مُفَارَقَةَ دِينِهِ فَأَتَى .
وَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَهُمْ أَنْ يَكْفُوا عَنْهُ ، وَطَلَبَ إِلَيْهِمْ
أَنْ يُنْزِلُوهُ عَنْ خَشَبَةِ الصَّلْبِ ...
ثُمَّ دَعَا بِقَدْرِ عَظِيمَةٍ فَصَبَّ فِيهَا الزَّيْتُ ،
وَرُفِعَتْ عَلَى النَّارِ حَتَّى غَلَتْ ...

ثُمَّ دَعَا بِأَسِيرَيْنِ مِنْ أُسَارَى الْمُسْلِمِينَ، فَأَمَرَ
بِأَحَدِهِمَا أَنْ يُلْقَى فِيهَا ...

فَأُلْقِيَ، فَإِذَا لَحْمُهُ يَتَفَتَّتُ، وَإِذَا عِظَامُهُ تَبْدُو
عَارِيَةً ...

ثُمَّ التَفَتَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ وَدَعَاهُ إِلَى
النُّصْرَانِيَّةِ، فَكَانَ أَشَدَّ إِتَاءَ لَهَا مِنْ قَبْلُ ...

فَلَمَّا يَمَسَ مِنْهُ؛ أَمَرَ بِهِ أَنْ يُلْقَى فِي الْقَدْرِ الَّتِي
أُلْقِيَ فِيهَا صَاحِبَاهُ فَلَمَّا ذُهِبَ بِهِ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ ...

فَقَالَ رِجَالُ قَيْصَرَ لِمَلِكِهِمْ: إِنَّهُ قَدْ بَكَى ...

فَظَنُّ أَنَّهُ قَدْ جَزِعَ^(١) ... وَقَالَ:

رُدُّوهُ إِلَيَّ .

فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ عَرَضَ عَلَيْهِ النُّصْرَانِيَّةَ،
فَأَبَاهَا .

(١) جزع: خاف .

فَقَالَ : وَيْحَكَ ^(١) ، فَمَا الَّذِي أَبْكَاكَ إِذْ نَ؟

قَالَ أَبْكَانِي أَنِّي قُلْتُ فِي نَفْسِي :

تُلْقَى الْآنَ فِي هَذِهِ الْقَدْرِ ، فَتَذْهَبُ نَفْسُكَ ،
وَقَدْ كُنْتُ أَشْتَهِي أَنْ يَكُونَ لِي بَعْدَ مَا فِي جَسَدِي
مِنْ شَعْرِ أَنْفُسٍ ؛ فَتُلْقَى كُلُّهَا فِي هَذِهِ الْقَدْرِ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ .

فَقَالَ الطَّاغِيَةُ :

هَلْ لَكَ أَنْ تُقْبَلَ رَأْسِي ، وَأُحَلِّي عَنْكَ ؟

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ :

وَعَنْ جَمِيعِ أُسَارَى الْمُسْلِمِينَ أَيْضاً ؟

قَالَ : وَعَنْ جَمِيعِ أُسَارَى الْمُسْلِمِينَ أَيْضاً .

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : عَدُوٌّ مِنْ

(١) ويحك : ويل لك ، وكثيراً ما تستعمل للترحم والتوجع .

أَعْدَاءِ اللَّهِ، أَقْبَلُ رَأْسَهُ فَيُخَلِّي عَنِّي وَعَنْ أُسَارَى
 الْمُسْلِمِينَ جَمِيعاً، لَا ضَيْرَ^(١) فِي ذَلِكَ عَلَيَّ ...
 ثُمَّ دَنَا مِنْهُ وَقَبَّلَ رَأْسَهُ، فَأَمَرَ مَلِكُ الرُّومِ أَنْ
 يَجْمَعُوا لَهُ أُسَارَى الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَذْفَعُوهُمْ إِلَيْهِ،
 فَذَفَعُوا لَهُ .

* * *

فَلَمَّا قَدِمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ عَلَى عُمَرَ بْنِ
 الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَصَّ عَلَيْهِ خَبْرَهُ سُرَّ بِهِ
 الْفَارُوقُ أَعْظَمَ السُّرُورِ ...

وَلَمَّا نَظَرَ إِلَى الْأُسْرَى قَالَ : حَقٌّ عَلَى كُلِّ
 مُسْلِمٍ أَنْ يُقْبَلَ رَأْسَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ ...
 وَأَنَا أَبْدَأُ بِذَلِكَ ... ثُمَّ قَامَ وَقَبَّلَ رَأْسَهُ ...

* * *

(١) لا ضير: لا ضرر.

٢ - الْكَرَامَةُ وَالْعِزَّةُ

وَمِنْ بَوَائِثِ الْبُطُولَةِ الْكُبْرَى الشُّعُورُ الْعَمِيقُ
بِالْكَرَامَةِ ...

وَالْإِحْسَاسُ الشَّدِيدُ بِالْعِزَّةِ ...

وَالْأَنْفَةُ^(١) مِنَ الْعَارِ ...

وَمَنْ يَسْتَعْرِضُ تَارِيخَنَا الشَّرِيفَ الْغَنِيِّ يَجِدُ فِيهِ
أَلْفَ بُطُولَةٍ وَبُطُولَةٍ بَعَثَتْ عَلَيْهَا الْعِزَّةُ وَالْأَنْفَةُ ...

وَدَفَعَ إِلَيْهَا الْكِبَرِيَاءُ وَالْإِبَاءُ .

* * *

(١) الأنفة : العزة والحمية .

فَعُقِبَهُ بْنُ نَافِعٍ أَقْبَلَ عَلَى مَوَارِدِ الرَّدَى^(١) يَوْمَ
« تَهْوِذَةَ »^(٢)؛ أَنْفَةً مِنَ الْعَارِ، وَهُوَ يَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّهُ
لَا صَدَرَ^(٣) بَعْدَ هَذَا الْوُرُودِ^(٤).

وَمُحَمَّدُ بْنُ حُمَيْدٍ الطُّوسِيُّ رَأَى بَابَ الْمَوْتِ
مُشْرِعاً أَمَامَهُ ...

فَدَخَلَهُ أَنْفَةً مِنْ عَارِ الْفِرَارِ .

وَأَبُو فِرَاسٍ الْحَمْدَانِيُّ وَقَفَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَحْلَاهُمَا
مُرّاً ...

فَاخْتَارَ الْأَسْرَ مَعَ الْكِرَامَةِ، عَلَى النِّجَاحِ مَعَ
الْهَوَانِ^(٥).

* * *

(١) الردى : القتل .

(٢) تَهْوِذَةُ : منطقة في شمال افريقيا .

(٣) الصَّدَرُ : الرجوع والإنصراف .

(٤) الورد أو الورد : الإشراف على المكان .

(٥) الهوان : الدلة والضعف .

وَفِي تَارِيخِنَا الْحَدِيثِ مَوَاقِفُ رَائِعَةٍ مِنْ
الْبُطُولَاتِ الَّتِي بَعَثَ عَلَيْهَا الشُّعُورُ بِالْكَرَامَةِ،
وَالْأَنْفَةُ الْمُتَعَالِيَةُ، عَلَى الْإِسْتِخْرَاءِ^(١) أَمَامَ الْأَجْنَبِيِّ
الْمُسْتَعْمِرِ.

مِنْ ذَلِكَ مَا دَوَّنَهُ تَارِيخُ هَذَا الْقُرُونِ لِلْقَاضِي
الْمِصْرِيِّ الدُّكْتُورِ عَبْدِ السَّلَامِ دُهْنِي ...
مِنْ مَوْقِفِ بَطُولِيٍّ؛ هَزَّ الشَّرْقَ وَالْغَرْبَ هَذَا ...
وَكَتَبَ فِيهِ الْأُدْبَاءَ وَالشُّعْرَاءَ مِنْ رَوَائِعِ الْبَيَانِ،
مَا هُوَ جَدِيدٌ بِالدِّرَاسَةِ وَالتَّقْوِيمِ .
وَالْيَكْمُ أَهْلِهَا السَّادَةُ خُلَاصَةٌ لِذَلِكَ الْمَوْقِفِ
الْمُثِيرِ ...

* * *

(١) الاستخراء: الاستحياء، وهو هنا فعل ما يبعث على الحزني والهوان.

فِي فَتْرَةِ الْاِخْتِلَالِ الْبَرِيطَانِيِّ لِمِصْرَ، أُعْطِيتْ
لِرِعَايَا الدُّوَلِ الْأَجْنَبِيَّةِ الْمُقِيمِينَ فِي أَرْضِ الْكِتَانَةِ،
كَثِيرٌ مِنَ الْإِمْتِيَازَاتِ الْعَجِيبَةِ الْغَرِيبَةِ...

وَكَانَ فِي جُمْلَةٍ هَذِهِ الْإِمْتِيَازَاتِ إِعْفَاءُ
الْأَجَانِبِ مِنَ الْخُضُوعِ لِلْقَضَاءِ الْمِصْرِيِّ،
وَالْتَقَاضِي أَمَامَ الْمَحَاكِمِ الْقُنْصُلِيَّةِ.

فَإِذَا شَجَرَ^(١) بَيْنَ الْأَجَانِبِ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ
خِلَافٌ...

أَوْ وَقَعَ الْخِلَافُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَحَدِ الْمِصْرِيِّينَ...

رُفِعَ الْأَمْرُ إِلَى قُنْصُلِيَّةِ الرَّجُلِ الْأَجْنَبِيِّ، فَتَقْضَى
فِيهِ دُونَ أَنْ يَكُونَ لِلسُّلْطَانِ الْمِصْرِيَّةِ أَيُّ سُلْطَانٍ
عَلَى مَا تُصْدِرُهُ هَذِهِ الْقُنْصُلِيَّاتُ مِنْ أَحْكَامٍ.

* * *

(١) شَجَرَ بَيْنَهُمْ: حَدَثَ مَا يَتَنَازَعُونَ فِيهِ.

وَفِي الثَّلَاثِينَاتِ مِنْ هَذَا الْقَرْنِ ، أُلْغِيَتْ هَذِهِ
الْمَحَاكِمُ الْقُنْصُلِيَّةُ ، وَنُقِلَتْ صِلَاحِيَّاتُهَا إِلَى مَا دُعِيَ
بِالْمَحَاكِمِ الْمُخْتَلِطَةِ ...

وَكَانَتْ الْمَحَاكِمُ الْمُخْتَلِطَةُ تَتَأَلَّفُ مِنْ قُضَاةٍ
إِنْكِلِيزِ ، وَفَرَنْسِيِّينَ وَالْأَلْمَانِ وَسُويِسَرِيِّينَ وَإِيطَالِيِّينَ
وَعَرَبِيَّيْنِ ، وَمِنْ قَاضٍ مِصْرِيٍّ أَيْضاً .

وَكَانَ رَئِيسُ الْمَحْكَمَةِ الْمُخْتَلِطَةِ آنَذَاكَ رَجُلًا
فَرَنْسِيًّا ، يُدْعَى « هُودِيَه » ، وَكَانَ عَدَدُ قُضَاتِهَا اثْنَيْ
عَشَرَ قَاضِيًّا ؛ فِيهِمْ أَحَدُ عَشَرَ أَعْجَبِيًّا وَقَاضٍ مِصْرِيٍّ
وَاحِدٌ .

ذَلِكَ الْقَاضِي هُوَ الدُّكْتُورُ عَبْدُ السَّلَامِ ذُهْنِي .

* * *

كَانَ الدُّكْتُورُ عَبْدُ السَّلَامِ ذُهْنِي أَحَدَ الْقَانُونِيِّينَ
الْمِصْرِيِّينَ الَّذِينَ تَنَقَّضُوا بِالثَّقَافَتَيْنِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْفَرَنْسِيَّةِ .

وَقَدْ اسْتَعْلَ مُدَّةٌ غَيْرُ قَلِيلَةٍ بِالمُحَامَاةِ ؛ عُرِفَ
بِحِلَالِهَا بِالاستِقَامَةِ وَالْأَمَانَةِ وَالصِّدْقِ .

ثُمَّ نُقِلَ إِلَى سِلْكِ الْقَضَاءِ ؛ فَشُهِرَ بَيْنَ النَّاسِ
بِالصَّلَابَةِ فِي الْحَقِّ ، وَالْأَنَاقَةِ^(١) فِي الْعَمَلِ ، وَالْحِرْصِ
عَلَى أَدَاءِ الْوَاجِبِ ...

ثُمَّ نُقِلَ مِنَ الْقَضَاءِ الْحُكُومِيِّ إِلَى الْمَحْكَمَةِ
الْمُخْتَلِطَةِ فِي الْقَاهِرَةِ .

وَكَانَتْ الْمَادَّةُ السَّادِسَةُ عَشْرَةَ مِنْ نِظَامِ
الْمَحْكَمَةِ الْمُخْتَلِطَةِ تَنْصُ عَلَى أَنَّ اللُّغَاتِ الَّتِي
تُسْتَعْمَلُ فِي الْمَحْكَمَةِ فِي الْمُرَافَعَاتِ وَتَدْوِينِ
الْأَحْكَامِ هِيَ ...

الْعَرَبِيَّةُ وَالْإِنْجِلِيزِيَّةُ وَالْفَرَنْسِيَّةُ وَالْإِيطَالِيَّةُ ...

(١) الْأَنَاقَةُ : التَّمَهُّلُ وَالْوَقَارُ وَالْحِلْمُ .

لَكِنَّهُ لَمْ يَحْدُثْ قَطَّ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنْ صَدَرَ
حُكْمٌ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَوْ تَمَّتْ مُرَافَعَةُ بِهَا .

وَقَدْ دَأَبَ الْقَاضِي الْمِصْرِيُّ الدُّكْتُور عَبْدُ
السَّلَامِ ذُهْنِي ، خِلَالَ ثَلَاثَةِ الْأَشْهُرِ الْأُولَى مِنْ تَوَلَّيْهِ
لِمَنْصِبِهِ ، عَلَى إِصْدَارِ أَحْكَامِهِ بِالْفَرَنْسِيَّةِ ...

وَكَانَ تَمَكُّنُهُ مِنْ هَذِهِ اللُّغَةِ وَدِقَّتُهُ فِي اسْتِعْمَالِهَا
مَتَّارَ دَهْشَةِ الرَّئِيسِ الْفَرَنْسِيِّ وَإِعْجَابِهِ بِهِ ، وَبَاعِثًا^(١) لَهُ
عَلَى تَوْجِيهِ كِتَابِ شُكْرِ لَهُ .

* * *

لَكِنَّهُ فِي الْيَوْمِ السَّادِسِ عَشَرَ مِنْ نَيْسَانَ
«إِبْرِيل» سَنَةِ أَلْفٍ وَتِسْعِمِائَةٍ وَأَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ ، أَعْلَنَ
الدُّكْتُور عَبْدُ السَّلَامِ ذُهْنِي أَوَّلَ حُكْمٍ صَدَرَ فِي هَذِهِ
الْمَحْكَمَةِ بِالْعَرَبِيَّةِ مِنْذُ إِنشَائِهَا ...

(١) باعثاً : دافعاً وحاملاً عَلَى فعل الشيء .

لَقَدْ أَغْلَنَ الْحُكْمَ وَسَجَّلَهُ بِالْعَرِيَّةِ وَرَفَعَهُ إِلَى
الرَّئِيسِ الْفَرَنْسِيِّ ...

وَقَدْ كَانَ الْحُكْمَ الَّذِي أَصْدَرَهُ الْقَاضِي
الْمِصْرِيُّ عَبْدُ السَّلَامِ ذُهْنِي بِمَنَابَةِ قُبْلَةٍ اهْتَرَّتْ
لَهَا دَوَائِرُ الاسْتِعْمَارِ كُلُّهَا ...

وَشَعَلَتِ الصُّحُفَ وَالْمَجَلَّاتِ حِيناً مِنْ
الزَّمَنِ ...

فَقَدْ دَعَا رَئِيسُ الْمَحْكَمَةِ الْأَعْضَاءَ الْأَحَدَ
عَشَرَ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرَ؛ فَأَصْدَرُوا قَرَاراً
بِاسْتِنْكَارٍ^(١) مَا فَعَلَهُ الْقَاضِي الْمِصْرِيُّ ...

وَاحْتَجَّتِ الدُّوَلُ الْأَجْنِبِيَّةُ ذَوَاتُ الْعَلَاqَةِ لَدَى
الْحُكُومَةِ الْمِصْرِيَّةِ عَلَى فَعْلَةِ قَاضِيهَا ...

(١) الاستنكار: الاستغراب وعدم الإقرار.

وَرَفَضَ رَئِيسُ الْمَحْكَمَةِ أَنْ يُوقَعَ الْحُكْمُ .

* * *

لَكِنَّ عَبْدَ السَّلَامِ ذُهْنِي أَصَرَ عَلَى شَرْعِيَّةِ
عَمَلِهِ ...

وَرَفَضَ أَنْ يَنْصَاعَ^(١) لِأَمْرِ رَئِيسِ الْمَحْكَمَةِ .
وَوَاصَلَ نَظَرَ الْقَضَايَا الْمُحَالَةَ إِلَيْهِ بِاللُّغَةِ
الْعَرَبِيَّةِ ...

وَأَمَرَ الْكُتَّابَ بِتَدْوِينِ الْأَحْكَامِ بِهَا .
وَالْتَقَى الْحُكَّامُ الْأَحَدَ عَشَرَ مَعَ عَبْدِ السَّلَامِ
ذُهْنِي لِيَقْنِعُوهُ بِالْعُدُولِ عَنْ مَسْلِكَهِ فَلَمْ يُفْلِحُوا ...
وَقَالُوا لَهُ : إِنَّ رَئِيسَ الْمَحْكَمَةِ لَا يَعْرِفُ
الْعَرَبِيَّةَ ...

(١) ينصاع : يرجع عما هو فيه .

فَقَالَ لَهُمْ : وَهُوَ لَا يَعْرِفُ الْإِيطَالِيَّةَ وَالْإِنْكِلِيزِيَّةَ
أَيْضاً ... وَمَعَ هَذَا فَإِنَّهُ لَا يُمَانِعُ فِي إِصْدَارِ الْأَحْكَامِ
بِهِمَا .

وَقَالُوا لَهُ : إِنَّ هَذِهِ بِدْعَةٌ لَمْ يَأْتِ بِهَا أَحَدٌ مِنَ
الْقَضَاةِ الْمِصْرِيِّينَ الَّذِينَ سَبَقُوكَ .

فَقَالَ لَهُمْ : إِنَّهُمْ قَصَرُوا فِي عَدَمِ اسْتِعْمَالِ
حَقِّهِمُ الَّذِي أَقَرَّهُ لَهُمْ نِظَامُ الْمَحْكَمَةِ ...

وَأَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَتَابِعَهُمْ فِي تَقْصِيرِهِمْ ...

عِنْدَ ذَلِكَ امْتَنَعَ رَئِيسُ الْمَحْكَمَةِ عَنْ تَوْجِيهِه أَيْ
قَضِيَّةٍ لِعَبْدِ السَّلَامِ ذُهْنِي بِقَصْدِ الاسْتِهَانَةِ بِهِ ...

فَأَخَذَ هُوَ زِمَامَ الْمُبَادَرَةِ وَجَعَلَ يُهَاجِمُ الرَّئِيسَ
وَيَحْتِجُّ عَلَيْهِ ...

وَشَاعَ الْأَمْرُ وَذَاعَ ، لَا فِي مِصْرَ وَحْدَهَا ، وَلَئِنَّمَا
فِي أَرْجَاءِ الْعَالَمَيْنِ الْعَرَبِيِّ وَالْإِسْلَامِيِّ ...

وَوَقَعَتِ الْحُكُومَةُ الْمِصْرِيَّةُ فِي حَرْجٍ مَا بَعْدَهُ
مِنْ حَرْجٍ ...

نَتِيجَةً لِمِصْطَبِ الدُّوَلِ الْأَجْنَبِيَّةِ عَلَيْهَا مِنْ
جِهَةٍ ...

وَصَغُطِ الرَّأْيِ الْعَامِّ الْمِصْرِيِّ عَلَيْهَا مِنْ جِهَةٍ
أُخْرَى ...

وَحَاوَلْتُ أَنْ تُقْنِعَ قَاضِيَهَا بِسُلُوكِ مَسَلِكِ اللِّينِ
فِي مَوْقِفِهِ بِاللُّزْغِيبِ وَاللُّزْهَيْبِ ...

فَوَجَدْتُهُ كَالطُّوْدِ الرَّاسِخِ^(١) لَا يَتَزَعَزَعُ
وَلَا يَتَزَحْزَحُ ...

* * *

وَطَفِقْتُ^(٢) الْبَرْقِيَّاتُ وَالرَّسَائِلُ تَنْهَالُ عَلَى

(١) الطود الراسخ : الجبل العظيم الثابت .

(٢) طفقت : أخذت البرقيات تتوالى .

القاضي الشجاع من كل جهة في مصر وخارج
مصر ...

وهب الشعراء والكتاب ينظمون القصائد
ويُدبِّجون^(١) المقالات، ويملأون بها الصحف
والمجلات ...

انحصاراً للغة القرآن التي يُراد لها أن تُهان في
بلد الأزهر ...

ثم انجلت المعركة عن نصير مؤزّر للحق ...
وهزيمة منكرة للباطل ...

وديوان كبير من الأدب ... أوحث به بطولته
القاضي العربي المسلم المغفور له الدكتور عبد
السلام ذهني عليه رحمة الله .

* * *

(١) يُدبِّجون : يزينون ويكتبون الكلام الجميل .

٣ - الْحُبُّ فِي اللَّهِ

وَمِنْ بَوَاعِثِ الْبُطُولَةِ الْكُبْرَى الْحُبُّ ...
فَكَمْ سَجَلَ التَّارِيخُ فِي أَسْفَارِهِ مِنْ بُطُولَاتِ
الْمُحِبِّينَ وَتَضَحِيَّاتِهِمْ ...
قِصَصاً تَسْتَلِينُ الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ، وَتَسْتَدِ
الدُّمُوعَ الْعَاصِيَةَ ...
وَالْحُبُّ أَنْوَاعٌ ...
لَكِنَّ أَسْمَى ضُرُوبِهِ سُمُوءًا، وَأَرْفَعَهَا رِفْعَةً،
وَأَخْصَبَهَا عَطَاءً ...
الْحُبُّ فِي اللَّهِ جَلٌّ وَعَزٌّ.

* * *

وَلَوْ جَمَعْنَا مَا وَعَاهُ تَارِيخُنَا مِنْ بُطُولَاتِ الْحُبِّ
فِي اللَّهِ لَحَظَيْنَا بِدِيَوَانِ مِنَ الْقَصَصِ الْعَبَقِ ^(١) بِطُيُوبِ
الْإِيمَانِ الْمُتَالِقِ بِسَنَّا ^(٢) الْعَقِيدَةِ .

* * *

وَلَعَلَّ أَرْوَغَ مَثَلٍ عَلَى هَذَا الْحُبِّ وَبُطُولَاتِهِ ...
مَا رَوَّثَهُ كُتُبُ التَّرَاجِمِ وَالسِّيَرِ عَنْ حُبِّيِّ بْنِ
عَدِيِّ ، فَلَقَدْ ظَفِرَتْ بِهِ قُرَيْشٌ بَعْدَ بَذْرِ ...
فَعَزَمَتْ عَلَى أَنْ تُنْكَلَ ^(٣) بِهِ أَشَدُّ التَّنْكِيلِ
وَأَقْسَاهُ ، انْتِقَاماً لِقَتْلَاهَا الَّذِينَ غَيَّبَهُمُ الْقَلِيبُ ^(٤) .

* * *

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ خَرَجَتْ مَكَّةُ بِقَضِّهَا ^(٥)

(١) العبق : العطر .

(٢) بسنا العقيدة : بنور العقيدة .

(٣) تنكل به : تذيبه أشد العذاب .

(٤) القليب : بئر ألقيت فيها جثث المشركين من قتلى غزوة بدر الكبرى .

(٥) بقضها وقضيضها : جميعها .

وَقَضِيضِهَا ، وَشِيْبَهَا وَوِلْدَانِهَا ، نَحْوَ مِنْطَقَةِ التَّنْعِيمِ فِي
ظَاهِرِ مَكَّةَ ...

وَهُمْ يَسْوَقُونَ أَمَامَهُمْ أَسِيرَهُمُ الْمَكْبَلَ بِقِيْدِهِ ؛
لِيَقْتُلُوهُ هُنَاكَ عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْقَوْمِ^(١) ...

وَكَانَ عَلَى رَأْسِ النَّاسِ جَمِيعاً أَبُو سُفْيَانَ بْنُ
حَزْبٍ ، وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ ...

فَلَمَّا بَلَغُوا مَوْضِعَ الْقَتْلِ ، رَفَعُوا حُبِيْباً عَلَى
نَشْرٍ^(٢) مِنَ الْأَرْضِ ، وَتَبَتُّوهُ عَلَى خَشْبَةِ الصَّلْبِ ...
وَهُنَا تَقَدَّمَ مِنْهُ أَبُو سُفْيَانَ وَقَالَ لَهُ :

أَنْشُدْكَ اللَّهَ ، أَتُحِبُّ أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ مَكَانَكَ
الْآنَ تُضْرَبُ عُنُقُهُ وَأَنْتَ آمِنٌ فِي أَهْلِكَ ؟
فَابْتَسَمَ حُبِيْبٌ وَقَالَ :

(١) عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْقَوْمِ : جَمْعٌ مِنَ النَّاسِ .
(٢) نَشْرٌ مِنَ الْأَرْضِ : مَكَانٌ مَرْتَفِعٌ مِنَ الْأَرْضِ .

وَاللَّهِ مَا أُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ فِي مَكَانِهِ الَّذِي
هُوَ فِيهِ الْآنَ ، وَأَنَّ شَوْكَةً تُصَيِّئُهُ فَتُؤْذِيهِ ، وَأَنِّي جَالِسٌ
فِي أَهْلِي .

فَأَمَرَ أَبُو سُفْيَانَ أَنْ يُمَثَّلَ^(١) بِهِ حَيًّا ...
وَأَعَادَ عَلَيْهِ السُّؤَالَ كَرَّةً أُخْرَى ...
فَأَجَابَ بِمَا أَجَابَ بِهِ مِنْ قَبْلُ ؛ وَظَلَّ عَلَى
ذَلِكَ :

فَأَبُو سُفْيَانَ يَسْأَلُهُ ...
وَهُوَ لَا يَتَحَوَّلُ عَنْ جَوَابِهِ ...
وَالسَّيَافُ يَقْطَعُ بِضْعَةً مِنْهُ ...
حَتَّى لَفِظَ أَنْفَاسَهُ الْأَخِيرَةَ .

(١) التمثيل به : تقطيع أجزاء من بدنه ، جزءاً بعد جزء .

فَمَا كَانَ مِنْ أَبِي سُفْيَانَ إِلَّا أَنْ قَالَ :
وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ يُحِبُّ أَحَدًا
كَحُبِّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ... مُحَمَّدًا .

* * *

٤ - الإِثَارُ عَلَى النَّفْسِ

وَمِنْ بَوَائِثِ الْبُطُولَةِ الَّتِي مَلَأَتِ الدُّنْيَا بِعَظَائِمِ
الْمَوَاقِفِ خُلُقُ الْإِثَارِ...

وَالْإِثَارُ عَلَى النَّفْسِ مِنَ الْمَكَارِمِ الَّتِي خَصَّهَا
اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ بِالدُّكْرِ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ .

وَنَعَتْ بِهَا أَنْصَارَ نَبِيِّهِ ﷺ فِي جُمْلَةٍ مَا نَعَتْهُمْ
بِهِ مِنْ جَلِيلِ الشَّمَائِلِ...

فَقَالَ عَلَتْ كَلِمَتُهُ :

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ
خَصَاصَةٌ ﴾ ^(١).

* * *

(١) سورة الحشر: آية ٩.

وَتَارِيحُنَا حَافِلٌ يَبْطُولَاتِ الْإِيثَارِ عَلَى النَّفْسِ
غَنِيَّ بِهَا .

فَلَوْ نَسِيَ الْمُسْلِمُونَ الْمَوَاقِفَ كُلَّهَا ...

فَإِنَّهُمْ لَنْ يَنْسُوا ذَلِكَ الْمَوْقِفَ الرَّائِعَ الَّذِي
خُتِمَتْ بِهِ مَعْرَكَةُ « الْيَوْمُوكِ » ^(١) ...

ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا انْجَلَتْ تِلْكَ الْوَاقِعَةُ الْفَاصِلَةُ عَنْ
ذَلِكَ النَّصْرِ الْمُؤَزِّرِ لِلْمُسْلِمِينَ ؛ كَانَ يَتَمَدَّدُ عَلَى أَرْضِ
الْيَوْمُوكِ ثَلَاثَةُ أَبْطَالٍ أَثْنَتَهُمْ ^(٢) الْجِرَاحُ هُمْ :

الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ ، وَعَيَّاشُ بْنُ أَبِي رَيْعَةَ ،
وَعِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ ^(٣) ...

فَدَعَا الْحَارِثُ بِمَاءٍ لِيَشْرَبَهُ ...

(١) معركة اليرموك : إحدى المعارك الفاصلة في التاريخ ، وقعت في السنة
الخامسة عشرة للهجرة وانتصر فيها المسلمون على الروم نصراً كبيراً .

(٢) أثنتهم الجراح : أضعفتهم وأوهنت قواهم .

(٣) عكرمة بن أبي جهل : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة »
للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

فَلَمَّا قُدِّمَ لَهُ ... نَظَرَ إِلَيْهِ عِكْرِمَةُ فَقَالَ :

اذْفَعُوهُ إِلَيْهِ ...

فَلَمَّا قَرَّبُوهُ مِنْ عِكْرِمَةَ ... نَظَرَ إِلَيْهِ عَيَّاشٌ
فَقَالَ : اذْفَعُوهُ إِلَيْهِ ...

فَلَمَّا دَنَوْا مِنْ عَيَّاشٍ وَجَدُوهُ قَدْ قَضَى
نَحْبَهُ^(١) ...

فَلَمَّا عَادُوا إِلَى صَاحِبَيْهِ وَجَدُوهُمَا قَدْ لَحِقَا بِهِ .

* * *

(١) قضى نَحْبَهُ : مات .

٥ - غِنَى النَّفْسِ (الزَّهَادَةُ)

وَمِنْ بَوَاعِثِ الْبُطُولَةِ أَيْضاً غِنَى النَّفْسِ ،
وَالزَّهَادَةُ بِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ ...

وَاحْتِقَارُ عَرَضِ ^(١) الْحَيَاةِ الْفَانِي .

حَدَّثَ أَحَدُ أَغْيَانِ مَكَّةَ قَالَ :

دَخَلْتُ بُسْتَاناً مِنْ بَسَاتِينِ الْمَدِينَةِ ، فَوَجَدْتُ
رَجُلًا حَبَشِيًّا يَجْلِسُ إِلَى جِدَارِ الْبُسْتَانِ وَفِي يَدِهِ
رَغِيفٌ مِنَ الْخُبْزِ ... وَأَمَامَهُ كَلْبٌ مُقْعٌ ^(٢) ...

فَكَانَ كُلَّمَا اقْتَطَعَ مِنَ الرِّغِيفِ لُقْمَةً وَوَضَعَهَا
يَفَمِهِ ، اقْتَطَعَ أُخْرَى وَدَفَعَ بِهَا إِلَى الْكَلْبِ ...

(١) عرض الحياة : الزائل الذي لا بقاء له .

(٢) مقع : الإقعاء هو جلسة الكلب على رجلبيه الخلفيتين .

فَدَنَوْتُ مِنْهُ وَقُلْتُ : أَهَذَا الْكَلْبُ كَلْبُكَ ؟

قَالَ : لَا ...

قُلْتُ : فَلِمَ تُطْعِمُهُ وَمَا مَعَكَ غَيْرُ هَذَا

الرَّغِيفِ ؟

قَالَ : لِأَنَّنَا أُمِرْنَا أَلَّا نَأْكُلَ وَذُو عَيْنٍ يَنْظُرُ ،
إِلَّا إِذَا أَطْعَمْنَاهُ مِمَّا نَأْكُلُ .

فَقُلْتُ : أَحَرُّ أَنْتَ أَمْ عَبْدٌ ؟

فَقَالَ : بَلْ عَبْدٌ لِآلِ فُلَانٍ ...

فَقُلْتُ : وَهَذَا الْبُسْتَانُ ؟ ...

فَقَالَ : إِنَّهُ لَهُمْ ، وَأَنَا أَعْمَلُ فِيهِ .

فَمَضَيْتُ إِلَى سَيِّدِهِ فَشَرَيْتُهُ مِنْهُ ، وَشَرَيْتُ
الْبُسْتَانَ أَيْضاً ...

ثُمَّ عُذْتُ إِلَيْهِ ، فَإِذَا هُوَ يَعْمَلُ فِي شَجَرَةٍ ...
فَقُلْتُ لَهُ : لَقَدْ اشْتَرَيْتَكَ مِنْ سَيِّدِكَ ...
وَأَعْتَقْتُكَ لِوَجْهِ اللَّهِ ...
وَاشْتَرَيْتَ مِنْهُ هَذَا الْبُسْتَانَ ...
وَوَهَبْتُهُ لَكَ ؛ ابْتِغَاءً^(١) لِمَرْضَاتِهِ جَلٍّ وَعَزٍّ .
فَمَا زَادَ عَلَيَّ أَنْ قَالَ :
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعْتَقَ رَقَبَتِي ...
وَالشُّكْرُ لَهُ عَلَيَّ أَنْ وَقَّكَ لِهَذَا الْخَيْرِ ...
أَمَّا الْبُسْتَانُ ... فَاشْهَدْ أَنِّي تَصَدَّقْتُ بِهِ عَلَى
فُقَرَاءِ الْمَدِينَةِ .
فَقُلْتُ : عَلَى الرَّغْمِ مِنْ حَاجَتِكَ !؟

(١) ابْتِغَاءً : طَلْباً .

فَقَالَ : هَذَاكَ اللَّهُ ...

لَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ ، أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا ؟

* * *

٦ - نَقْدُ الذَّاتِ

وَمِنْ بَوَاعِثِ الْبُطُولَةِ أَيْضاً صِدْقُ الْمَرْءِ مَعَ
نَفْسِهِ ، وَإِخْلَاصُهُ فِي نَقْدِهَا ...

وَقُدْرَتُهُ عَلَى مُوَاجَهَتِهَا بِعُيُوبِهَا ، وَمُصَارَحَتِهَا
بِهَا ...

وَهِيَ خَصْلَةٌ لَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذَوُو النُّفُوسِ
الْكَبِيرَةِ ...

وَلَا يَحْظِي بِهَا إِلَّا أَصْحَابُ الْحُظُوظِ الْعَظِيمَةِ .

ذَلِكَ أَنَّ الصِّدْقَ مَعَ الْآخِرِينَ ، وَمُوَاجَهَتَهُمْ
بِأَخْطَائِهِمْ مُوَاجَهَةٌ صَادِقَةٌ خَالِصَةٌ بِنَاءً أَمْزَ يَشُقُّ عَلَى
النُّفُوسِ ...

فَكَيْفَ يَنْقُذِ الذَّاتِ ۱۱؟

* * *

وَفِي تَارِيخِنَا نَمَازُجُ رَائِعَةٌ مِنْ بُطُولَاتِ نَقْدِ
الذَّاتِ ...

وَالِإِعْتِرَافِ بِالذَّنْبِ الَّذِي لَمْ يَطْلُعْ عَلَيْهِ أَحَدٌ
إِلَّا اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ ...

حَتَّى لَوْ كَانَ الْإِعْتِرَافُ بِهِ يُؤَدِّي إِلَى إِقَامَةِ
الْحَدِّ الَّذِي تُزْهَقُ مَعَهُ الْحَيَاةُ .

وَمَا قِصَّةُ ذَلِكَ الَّذِي جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ،
يَعْتَرِفُ لَهُ بِأَنَّهُ قَارَفَ جَرِيمَةَ الزُّنَا ...

وَيَطْلُبُ تَطْهِيرَهُ مِنْهَا بِإِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَيْهِ ، بِبَعِيدَةٍ
عَنِ الْأَذْهَانِ .

* * *

وَمِنْ قِصَصِ بُطُولَةِ نَقْدِ الذَّاتِ ، مَا رَوَتْهُ كُتُبُ
التَّرَاجِمِ وَالتَّارِيخِ مِنْ أَنَّ أَمِيرَ « الْعِرَاقَيْنِ » ^(١) عُمَرَ بْنَ
يَزِيدَ بْنِ هُبَيْرَةَ ، دَعَا كُلاًّ مِنَ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ،
وَعَامِرِ بْنِ شَرَاهِيلَ الْمَعْرُوفِ الشَّعْبِيِّ ^(٢) وَقَالَ
لَهُمَا :

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ قَدْ
اسْتَحْلَفَهُ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ ، وَأَوْجَبَ طَاعَتَهُ عَلَى
النَّاسِ ...

وَقَدْ وَلَّانِي أَمْرَ « الْعِرَاقِ » ، ثُمَّ زَادَنِي فَوَلَّانِي
« خُرَاسَانَ » ...

وَهُوَ يُرْسِلُ إِلَيَّ كُتُباً يَأْمُرُنِي بِإِنْفَاقِ ^(٣) مَا فِيهَا ،
مِمَّا لَا أَسْتَرِيحُ لَهُ ...

(١) العراقين : الكوفة والبصرة .

(٢) الحسن البصري ، وعامر بن شراحيل : انظرهما في كتاب « صور من حياة
التابعين » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٣) إنفاذ ما فيها : القضاء بما فيها .

فَهَلْ تَجِدَانِ لِي فِي إِنْفَازِ أَوَامِرِهِ مَخْرَجاً فِي
الدِّينِ؟

فَأَجَابَ الشَّعْبِيُّ جَوَاباً فِيهِ تَقِيَّةٌ لِلْخَلِيفَةِ،
وَمُسَايَرَةٌ لِلْوَالِي ...

وَالْحَسَنُ سَاكِتٌ ...

فَالْتَفَتَ عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ إِلَى الْحَسَنِ، وَقَالَ:

وَمَا تَقُولُ أَنْتَ يَا حَسَنُ؟

فَقَالَ: يَا بَنَ هُبَيْرَةَ خَفِ اللَّهَ فِي يَزِيدَ وَلَا تَخَفْ
يَزِيدَ فِي اللَّهِ ...

وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ جَلٌّ وَعَزٌّ يَمْنَعُكَ^(١) مِنْ يَزِيدَ ...
وَأَنَّ يَزِيدَ لَا يَمْنَعُكَ مِنَ اللَّهِ ...

يَا بَنَ هُبَيْرَةَ إِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَنْزِلَ بِكَ مَلَكٌ عَلِيظٌ
شَدِيدٌ لَا يَعْصِي اللَّهَ مَا أَمَرَهُ ...

(١) يَمْنَعُكَ: يَحْمِيكَ وَيَحْفَظُكَ.

فَيَرْيَلُكَ عَنْ سَرِيرِكَ هَذَا ...

وَيَنْقُلُكَ مِنْ سَعَةِ قَصْرِكَ إِلَى ضَيْقِ قَبْرِكَ ...

حَيْثُ لَا تَجِدُ هُنَاكَ يَزِيدَ، وَإِنَّمَا تَجِدُ عَمَلَكَ
الَّذِي خَالَفْتَ فِيهِ رَبَّ يَزِيدَ ...

يَا بَنَ هُبَيْرَةَ إِنَّكَ إِنْ تَكُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى وَفِي
طَاعَتِهِ كَفَاكَ بَائِقَةً^(١) يَزِيدَ بَنَ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ ...

وَإِنْ تَكُ مَعَ يَزِيدَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى ...
وَكَلَّكَ^(٢) اللَّهُ إِلَى يَزِيدَ .

وَاعْلَمْ يَا بَنَ هُبَيْرَةَ أَنَّهُ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ كَائِنًا
مَنْ كَانَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ جَلًّا وَعِزًّا ...

(١) كفاك بائقة يزيد : يحملك من أذى يزيد .

(٢) وكلك : سلّمك إليه وتركك له .

فَبَكَى عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ حَتَّى بَلَكَتْ دُمُوعُهُ
لِحَيْتَهُ ...

وَمَالَ عَنِ الشَّعْبِيِّ إِلَى الْحَسَنِ ...
وَبَالَغَ فِي إِعْظَامِهِ وَإِكْرَامِهِ ...

فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ تَوَجَّهًا إِلَى الْمَسْجِدِ ،
فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِمَا النَّاسُ ... وَجَعَلُوا يَسْأَلُونَهُمَا عَنْ
خَبَرِهِمَا مَعَ أَمِيرِ « الْعِرَاقَيْنِ » .

فَالْتَفَتَ الشَّعْبِيُّ إِلَى النَّاسِ وَقَالَ :
أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُؤَثِّرَ ^(١) اللَّهُ عَزَّ
وَجَلَّ عَلَى خَلْقِهِ فِي كُلِّ مَقَامٍ فَلْيَفْعَلْ .
فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ... مَا قَالَ الْحَسَنُ لِعُمَرَ
ابْنِ هُبَيْرَةَ قَوْلًا أَجْهَلُهُ ...

(١) يؤثره : يقدمه ويفضله على كل ما عداه .

وَلَكِنِّي أَرَدْتُ فِيمَا قُلْتُهُ وَجْهَ ابْنِ هُبَيْرَةَ ...

وَأَرَادَ فِيمَا قَالَهُ وَجْهَ اللَّهِ ...

فَأَقْصَانِي اللَّهُ مِنْ ابْنِ هُبَيْرَةَ ...

وَأَذَنَاهُ مِنْهُ وَحَبِيبُهُ إِلَيْهِ .

* * *

٧ - تَقْوَى اللَّهِ

وَمِنْ بَوَائِثِ الْبُطُولَةِ التَّقْوَى ... فَإِذَا تَمَكَّنْتَ
هَذِهِ الْمَنْقِبَةَ^(١) مِنْ قَلْبِ امْرِئٍ ...
أَحْكَمْتَ سُلْطَانَهُ عَلَى نَفْسِهِ ...
وَشَدَّدْتَ قَبْضَتَهُ عَلَى هَوَاهُ ...
وَمَلَأْتَ بِالْبُطُولَاتِ أَعْمَالَهُ وَتَصَرُّفَاتِهِ ...
وَمَا أَحْسَنَ مَا قِيلَ فِي ذَلِكَ :
لَيْسَ مَنْ يَقْطَعُ طُرُقاً بَطَلاً
إِنَّمَا مَنْ يَتَّقِي اللَّهَ الْبَطْلُ

* * *

(١) المنقبة : المفعرة والفعل الكريم .

وَنَمَازِجَ الْبُطُولَةِ الَّتِي بَعَثَتْ عَلَيْهَا التَّقْوَى فِي
تَارِيخِنَا كَثِيرَةٌ وَفِيرَةٌ... لَا يَعْلَمُ الْمَوْتُ مَاذَا يَأْخُذُ مِنْهَا
وَمَاذَا يَدَعُ، مِنْ ذَلِكَ أَنَّ التَّابِعِيَّ^(١) الْجَلِيلَ مُحَمَّدَ
ابْنَ سِيرِينَ^(٢)، كَانَ قَدْ قَسَمَ حَيَاتَهُ أَقْسَامًا ثَلَاثَةً :

فَجَعَلَ قِسْمًا لِلْعِلْمِ : يَأْخُذُهُ وَيُعْطِيهِ ...

وَقِسْمًا لِلْعِبَادَةِ : يَصُفُّ فِيهِ إِلَى رَبِّهِ ...

وَقِسْمًا لِلتَّجَارَةِ : يَكْسِبُ فِيهِ الْمَالَ الَّذِي يَشُدُّ
بِهِ الْحَاجَاتِ ، وَيَقْضِي بِهِ الْحُقُوقَ وَيَعُودُ بِهِ عَلَى
الْمُحْتَاجِينَ .

* * *

(١) التابعون : هم الرعيل الأول بعد صحابة النبي ﷺ ، وقد قسمهم علماء
الحدِيث إلى طبقات ، أولهم من لحق العشرة المبشرين بالجنة وآخرهم من
لَقِيَ صَفَارِ الصُّحَابَةِ أَوْ مِنْ تَأَخَّرَتْ وَفَاتِهِمْ ... انظر كتاب « صور من حياة
التابعين » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٢) مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ : انظره في كتاب « صور من حياة التابعين » للمؤلف ،
الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

وَفِي ذَاتِ مَرَّةٍ اشْتَرَى زَيْتًا بِأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ
مُؤَجَّلَةً^(١)...

فَلَمَّا فَتَحَ أَحَدَ زِقَاقِ^(٢) الزَّيْتِ وَجَدَ فِيهِ فَأُرَاءَ
مَيِّتًا مُتَفَسِّخًا.

فَقَالَ فِي نَفْسِهِ :

إِنَّ الزَّيْتِ كُلَّهُ كَانَ فِي الْمَعْصَرَةِ فِي مَكَانٍ
وَاحِدٍ...

وَلِإِنَّ النَّجَاسَةَ لَيْسَتْ خَاصَّةً بِهَذَا الزَّقِّ دُونَ
سِوَاهُ...

وَلِإِنِّي إِنْ رَدَدْتُهُ لِلْبَّائِعِ بِالْعَيْبِ^(٣) فَرُبَّمَا بَاعَهُ
لِلنَّاسِ...

(١) مؤجلة : يدفع ثمنها في المستقبل .

(٢) الزقاق : واحدها زق ، وهو إناء من جلد تحفظ فيه السوائل .

(٣) الرد بالعيب : مسألة معروفة في فقه التجارة ، وهي أن يرد المشتري البضاعة
لعيب فيها .

ثُمَّ أَرَاكَ كُلَّهُ .

وَقَعَ ذَلِكَ فِي وَقْتٍ كَانَ يَشْكُو فِيهِ مُحَمَّدٌ بْنُ
سِيرِينَ مِنْ خَسَارَةِ كَبِيرَةٍ حَلَّتْ بِهِ ...

فَرَكِبَهُ الدِّينُ ... وَطَالَبَهُ صَاحِبُ الزَّيْتِ بِمَالِهِ ،
فَلَمْ يَسْتَطِعْ سَدَادَهُ ...

فَرَفَعَ أَمْرَهُ إِلَى الْوَالِي ، فَأَمَرَ بِحَبْسِهِ حَتَّى يُسَدَّدَ
مَا عَلَيْهِ .

فَلَمَّا صَارَ فِي السَّجْنِ وَطَالَ مَكُثُهُ^(١) فِيهِ ...
أَشْفَقَ عَلَيْهِ السَّجَّانُ ؛ لِمَا عَلِمَ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ ، وَمَا رَأَى
مِنْ شِدَّةِ وَرَعِهِ وَطُولِ عِبَادَتِهِ ...

فَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا الشَّيْخُ ، إِذَا كَانَ اللَّيْلُ فَادْهَبْ
إِلَى أَهْلِكَ وَبِثْ مَعَهُمْ ...

(١) مكثه : بقاؤه .

فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَعُدْ إِلَيَّ ، وَاسْتَمِرَّ عَلَى ذَلِكَ
حَتَّى يُطْلَقَ سَرَاحُكَ .

فَقَالَ لَهُ : لَا ، وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ ...

فَقَالَ السَّجَّانُ : وَلِمَ ، هَذَاكَ اللَّهُ ۱۴

فَقَالَ لَهُ : حَتَّى لَا أُعَاوَنَكَ عَلَى خِيَانَةِ
السُّلْطَانِ .

* * *

وَلَمَّا اخْتُصِرَ^(١) أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ^(٢) رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ أَوْصَى بِأَنْ يَغْسِلَهُ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ وَيُصَلِّيَ
عَلَيْهِ ، وَكَانَ مَا يَزَالُ سَجِينًا .

فَلَمَّا تُوفِّيَ ، جَاءَ النَّاسُ إِلَى الْوَالِي ... وَأَخْبَرُوهُ

(١) اخْتُصِرَ: حضره الموت ، أي صار في آخر لحظات عمره .
(٢) أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ،
الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

بِوَصِيَّةِ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَخَادِمِهِ ...
وَاسْتَأْذَنُوهُ فِي أَنْ يُخَلِّيَ سَبِيلَ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ
لِإِنْفَاقِ الْوَصِيَّةِ ... فَأَذِنَ لَهُ .

فَقَالَ لَهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ :
لَا أَخْرُجُ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا صَاحِبَ الدِّينِ ؛ فَإِنَّمَا
حُبِسْتُ بِمَا لَهُ عَلَيَّ مِنَ الْحَقِّ ...
فَأَذِنَ لَهُ الدَّائِنُ أَيْضاً ...
عِنْدَ ذَلِكَ خَرَجَ مِنْ سِجْنِهِ فَعَسَلَ أَنْسًا وَكَفَّنَهُ ،
وَصَلَّى عَلَيْهِ ...

ثُمَّ رَجَعَ إِلَى السِّجْنِ كَمَا هُوَ ...
وَلَمْ يَذْهَبْ لِرُؤْيَا أَهْلِهِ .

* * *

٨ - الرُّضُوحُ لِلْحَقِّ وَالْإِذْعَانُ لَهُ

وَمِنْ بَوَاعِثِ الْبُطُولَةِ الْإِنْصِيَاغُ لِلشَّرْعِ،
وَالرُّضُوحُ لِأَحْكَامِهِ ...

مَهْمَا كَانَتْ قَاسِيَةً عَلَى النَّفْسِ ...

وَتَقْدِيرُ الْحَقِّ وَالرَّغْبَةُ فِي الْوُصُولِ إِلَيْهِ ...

وَالصَّدْقُ وَالْإِخْلَاصُ فِي تَنْفِيذِهِ مَهْمَا كَانَ
ثَقِيلَ الثِّبَاتِ ...

* * *

وَفِي تَارِيخِنَا الْإِسْلَامِيِّ مِنَ الْبُطُولَاتِ الَّتِي
انْبَعَثَتْ عَنْ هَذَا الْبَاعِثِ مَا يَعْزُّ ...

مِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الرَّبِيعُ حَاجِبُ الْمَنْصُورِ ...
 قَالَ : مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَحْضَرَ جَنَانًا ، وَلَا أَرْبَطَ
 جَاشَأً مِنْ رَجُلٍ سَعِيٍّ ^(١) بِهِ إِلَى الْمَنْصُورِ ... أَنَّ عِنْدَهُ
 وَدَائِعَ وَأَمْوَالًا لِبَنِي أُمَيَّةَ ، فَأَمَرَنِي بِإِحْضَارِهِ ...
 فَأَحْضَرْتُهُ وَدَخَلْتُ بِهِ عَلَيْهِ .

فَقَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ :

قَدْ رُفِعَ إِلَيْنَا خَبَرُ الْوَدَائِعِ وَالْأَمْوَالِ الَّتِي عِنْدَكَ
 لِبَنِي أُمَيَّةَ فَأَخْرِجْهَا لَنَا ...

فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَوَارِثَ أَنْتَ لِبَنِي
 أُمَيَّةَ ؟ ...

قَالَ : لَا ...

قَالَ : أَفَأَنْتَ لَهُمْ وَصِيٌّ ؟ ...

(١) سعي به : وشي به ونقل عنه إحدى التهام .

قَالَ الْمَنْصُورُ: لَا ...

فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: إِذَا فَمَا سَبَبُ سُؤَالِكَ عَمَّا فِي
يَدَيَّ مِنْ ذَلِكَ؟^(١)

فَأُطْرَقَ^(١) الْمَنْصُورُ سَاعَةً ...

ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ لِلرَّجُلِ:

إِنَّ بَنِي أُمَيَّةَ ظَلَمُوا الْمُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ
الْأَمْوَالِ ... وَأَنَا وَكِيلُهُمْ فِي حَقِّهِمْ ...

فَأَرِيدُ أَنْ آخُذَ هَذِهِ الْوَدَائِعَ ؛ وَأَرْدُّهَا إِلَى بَيْتِ
الْمَالِ .

فَقَالَ الرَّجُلُ:

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَلْزَمُ فِي ذَلِكَ إِقَامَةُ الْبَيِّنَةِ
الْعَادِلَةِ عَلَى أَنَّ الَّذِي فِي يَدَيَّ هُوَ لِبَنِي أُمَيَّةَ ...

(١) أَطْرَقَ: نظر إلى الأرض ولم يتكلم.

وَأَنَّهُمْ قَدْ خَانُوا النَّاسَ فِيهِ ...
وَاعْتَصَبُوهُ ظُلْمًا مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ ...
فَإِنَّ بَنِي أُمَيَّةَ كَانُوا لَهُمْ أَمْوَالٌ غَيْرُ أَمْوَالِ
الْمُسْلِمِينَ .

قَالَ الرَّبِيعُ : فَعَادَ الْمَنْصُورُ وَأَطْرَقَ سَاعَةً إِلَى
الْأَرْضِ ... ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ ...
وَقَالَ لِي :

يَا رَبِيعُ ؛ مَا وَجَبَ^(١) لَنَا عَلَى الرَّجُلِ شَيْءٌ .
ثُمَّ إِنَّ الْمَنْصُورَ التَفَتَ إِلَى الرَّجُلِ مُبْتَسِمًا وَقَالَ
لَهُ :

هَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ فَأَقْضِيَهَا لَكَ ؟ .
فَقَالَ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

(١) وجب : ثبت ، أو لازم .

حَاجَتِي أَنْ تَبْعَثَ بِرِسَالَةٍ مِنِّي إِلَى أَهْلِي فِي
الشَّامِ مَعَ الْبَرِيدِ لِيَسْكُنُوا إِلَيَّ سَلَامَتِي ...

فَقَدْ رَاعَهُمْ لِشَخَاصِي^(١) مِنْ عِنْدِهِمْ ...

ثُمَّ أَسْأَلُكَ حَاجَةً أُخْرَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

فَقَالَ لَهُ : وَمَا هِيَ ؟ ...

فَقَالَ : أُرِيدُ مِنْكَ كَرَمَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَجْمَعَ
بَيْنِي وَبَيْنَ مَنْ سَعَى بِي إِلَيْهِ ...

فَوَاللَّهِ ، مَا عِنْدِي لِبَيْنِي أُمِّيَّةَ شَيْءٍ ، وَلَا فِي يَدَي
مَالٌ وَلَا وَدِيعَةٌ لَهُمْ ...

وَلَا فِي مَعْرِفَتِي أَنَّ لَهُمْ عِنْدَ أَحَدٍ شَيْئًا ...

وَلَكِنِّي لَمَّا مَثَلْتُ بَيْنَ يَدَيْكَ وَسَأَلْتَنِي ...

رَأَيْتُ أَنَّ مَا قُلْتُهُ أَقْرَبُ إِلَيَّ الْخَلَاصِ عِنْدَكَ .

(١) لِشَخَاصِي : إِخْرَاجِي .

قَالَ الرَّبِيعُ : فَالْتَفَتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيَّ ...
وَقَالَ لِي : يَا رَبِيعُ ، اجْمَعُ بَيْتَهُ وَبَيْنَ مَنْ سَعَى
بِهِ ...
فَأَحْضَرْتُ الرَّجُلَ الَّذِي سَعَى بِهِ ، فَحِينَ رَأَاهُ ،
قَالَ :
هَذَا غُلَامِي ^(١) سَطَا عَلَى ثَلَاثَةِ آلَافِ دِينَارٍ مِنْ
مَالِي ... وَأَبَقَ ^(٢) بِهَا مِنِّي ...
فَلَمَّا سَمِعَ الْمَنْصُورُ ذَلِكَ هَدَّدَ الْغُلَامَ وَشَدَّدَ
عَلَيْهِ ...
فَأَقَرَّ بِصِدْقِ كَلَامِ الرَّجُلِ وَاعْتَرَفَ بِأَنَّهُ
غُلَامُهُ ...
وَأَنَّهُ أَخَذَ الْمَالَ الَّذِي ذَكَرَهُ مَوْلَاهُ وَأَبَقَ بِهِ ...

(١) غلامي : عبيدي الرقيق .

(٢) أبق : هرب .

وَأَنَّهُ إِنَّمَا سَعَى بِمَوْلَاهُ لَعَلَّهُ يُقْتَلُ ... وَيَسْلَمَ هُوَ
مِنَ الْوُقُوعِ بِيَدِهِ .

فَالْتَفَتَ الْمَنْصُورُ إِلَى الرَّجُلِ ...
وَقَالَ : نَسَأَلُكَ الصَّفْحَ عَنْهُ .

فَقَالَ الرَّجُلُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، صَفَحْتُ عَنْ
جُزْمِهِ وَأَبْرَأْتُ ذِمَّتَهُ مِنَ الْمَالِ ... وَأَعْطَيْتُهُ ثَلَاثَةَ
آلَافٍ دِينَارٍ أُخْرَى .

فَقَالَ الْمَنْصُورُ : مَا عَلَى مَا فَعَلْتَ مِنَ الْكَرَمِ مِنْ
مَزِيدٍ .

فَقَالَ : بَلْ اسْتِمَاعُكَ إِلَيَّ ...
وَأَنْصِيَاغُكَ إِلَى الْحَقِّ ...
أَجَلٌ وَأَكْرَمٌ ...
ثُمَّ اسْتَأْذَنَ وَأَنْصَرَفَ .

* * *

خَاتِمَةٌ

وَأَخِيرًا فَهَذَاكَ بُطُولَاتُ كَثِيرَةٍ لَا يَنْفَرِدُ فِي
إِبْدَاعِهَا بَاعِثٌ وَاحِدٌ ...

وَلِئِنَّمَا تَأْتَلِفُ فِي صِنَاعَتِهَا خِلَالَ^(١) شَتَّى ...
وَخَصَائِلُ مُتَعَدِّدَةٍ .

مِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ « الصُّوْلِيُّ » عَنْ يَغْقُوبَ بْنِ
جَعْفَرَ بْنِ سُلَيْمَانَ قَالَ :

عَزَوْتُ مَعَ الْمُعْتَصِمِ « عُمُورِيَّةً »^(٢) ...

فَاحْتَاجَ الْجُنْدُ إِلَى الْمَاءِ ... فَمَدَّ لَهُمُ الْمُعْتَصِمُ

(١) خِلَالَ : خِصَالٌ وَصِفَاتُ .

(٢) انظر يوم عُمُورِيَّةٍ فِي كِتَابِ « حُدُوثُ فِي رَمَضَانَ » لِلْمُؤَلِّفِ .

حَيَاضاً مِنْ أَدَمَ^(١) طُولَهَا عَشْرَةُ أَمْيَالٍ ، وَسَاقَ فِيهَا
الْمَاءَ إِلَى سُورٍ « عَمُورِيَّة » .

وَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الرُّومِ يَقُومُ كُلَّ يَوْمٍ عَلَى سُورٍ
« عَمُورِيَّة » ، وَيَسْتُثْمِ النَّبِيَّ ﷺ بِالْعَرَبِيَّةِ بِاسْمِهِ
وَنَسَبِهِ .

فَاسْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَلَمْ يَكُنْ يَصِلُ
إِلَيْهِ الثُّشَابُ^(٢) ...

قَالَ يَعْقُوبُ :

وَكَنتُ أَرْمِي رَمِيًّا جَيِّدًا ... فَأَعْتَمَدْتُهُ بِثُشَابَةٍ ،
فَأَصَبْتُ نَحْرَهُ^(٣) فَهَوَى ، وَكَبَّرَ الْمُسْلِمُونَ ...

وَسَرَّ الْمُعْتَصِمُ وَقَالَ :

(١) الأدم : الجلد المدبوغ .

(٢) الثُّشَابُ : السهم .

(٣) النحر : نقرة في العنق أعلى الصدر .

عَلَيَّ بِالَّذِي رَمَاهُ .

فَأَدْخِلْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ : مَنْ أَنْتَ ؟ ...

فَانْتَسَبْتُ لَهُ ...

فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ ثَوَابَ هَذَا السَّهْمِ
لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي [يَعْنِي بَنِي الْعَبَّاسِ] ...

ثُمَّ التَفَتَ إِلَيَّ ... وَقَالَ :

يَعْنِي ثَوَابَكَ مِنْ هَذَا السَّهْمِ ؛ وَأَنَا أُعْطِيكَ بِهِ
عِشْرِينَ أَلْفًا .

فَقُلْتُ : مَا أبيعُهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

وَلَيْسَ الثَّوَابُ مِمَّا يُبَاعُ .

فَقَالَ : أَنَا أَرِيدُكَ وَأُعْطِيكَ خَمْسِينَ أَلْفًا ...

فَقُلْتُ : مَا أبيعُ ثَوَابِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَمَازَالَ يُرْغَبُنِي ^(١) حَتَّى أَعْطَانِي مِائَةَ أَلْفٍ ...
 فَقُلْتُ : لَا أَيْبُغُ ثَوَابِي بِالدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ...
 وَلَكِنْ قَدْ وَهَبْتُكَ نِصْفَ ثَوَابِ هَذَا السَّهْمِ ...
 وَاللَّهُ يَشْهَدُ عَلَيَّ بِذَلِكَ .
 فَقَالَ : جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا ... قَدْ رَضِيتُ .
 ثُمَّ قَالَ : أَتَيْنَ تَعَلَّمْتَ الرَّمِي ؟
 فَقُلْتُ : فِي دَارِي فِي الْبَصْرَةِ .
 فَقَالَ : يَغْنِيهَا ...
 فَقُلْتُ : هِيَ هَاتِ ^(٢) ...
 لَقَدْ وَقَفْتُهَا عَلَى مَنْ يَتَنَبَّي تَعَلَّمَ الرَّمِي .
 فَقَالَ : وَمَنْ يُعَلِّمُهُمْ ؟

(١) يُرْغَبُنِي : يحبب إلي الأمر ويغريني به .
 (٢) هيات : اسم فعل بمعنى بعد [أي أن قبول ذلك بعيد] .

فَقُلْتُ : أَنَا أَعْلَمُهُمْ ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

* * *

وَبَعْدُ ...

فَلَيْسَتْ الْبُطُولَةُ وَالْبُطُولَاتُ تَرْفَأُ فِي حَيَاةِ
الْأُمَّمِ ...

وَلَا قِصَصاً تُرَوَّى لِلتَّسْلِيَةِ وَتَرْجِيَةِ الْفَرَاغِ ...

وَلِنَّمَا هِيَ حَاجَاتُ ضَرُورِيَّةٍ أَسَاسِيَّةٌ ...

لَا تَكْتَمِلُ حَيَاةُ الشُّعُوبِ إِلَّا بِهَا ...

وَلَا تُبْنَى الْمُجْتَمَعَاتُ الْفَاضِلَةُ الْقَوِيَّةُ إِلَّا عَلَى
أَسَاسِهَا .

فَالْبُطُولَاتُ تَتَجَسَّدُ قِيَمُ الْأُمَّةِ وَمُثُلُهَا ...

وَتَبْزُرُ خَصَائِصُهَا وَمَقُومَاتُهَا ...

وَتَقْوَىٰ ثِقَتُهَا بِنَفْسِهَا ...
وَبِالْأَبْطَالِ تَتَحَقَّقُ لِأَبْنَاءِ الْأُمَّةِ الْقُدْوَةُ
وَالْأُسْوَةُ ...
وَتَتَحَوَّلُ الْخِلَالُ وَالْخِصَالُ إِلَى كَائِنَاتٍ حَيَّةٍ
تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ ...
وَالْأَبْطَالُ - مُنْذُ كَانُوا - مَشَاعِلُ تُضِيءُ لِلنَّاشِئَةِ
دُرُوبَ الْمَجْدِ وَالشُّوْذِ وَالْخَيْرِ وَالْبِرِّ ...
وَمَنَارَاتُ تَشْدُ أَعْيُنَهُمْ نَحْوَ الذَّرَى وَالْقِمَمِ .
وَلَوْ سُئِلْتُ عَنِ الْبَاعِثِ الْأَوَّلِ وَالْأَوْحِدِ
لِلْبَطُولَةِ ...
لَقُلْتُ - مِنْ غَيْرِ تَرَدُّدٍ - « الْإِيمَانُ » .

* * *

المراجع

- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني .
- أعلام النبلاء للذهبي .
- وفيات الأعيان لابن خلكان .
- البطولة والأبطال للدكتور أحمد محمد الحوفي .
- تاريخ ابن عساكر .
- تاريخ الإسلام للذهبي .
- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي .
- تاريخ خليفة بن خياط .
- دائرة المعارف الإسلامية .

- الزهد للإمام أحمد بن حنبل .
- من أبطالنا الذين صنعوا التاريخ لأبي الفتوح التواني .
- الموسوعة العربية الميسرة .

* * *

الفهرس

- * تمهيد ٧
- * البطولة عند المسلمين ١١
- * البطولة لغةً واصطلاحاً ١٥
- * معالم البطولة ٢١
- * بواعث البطولة وضروبها وأمثلة عليها.
- ١ - الإيمان بالله ٢٣
- ٢ - الكرامة والعزة ٣٥
- ٣ - الحب في الله ٤٧
- ٤ - الإيثار على النفس ٥٥

- ٥ - غِنَى النَّفْسِ (الزَّهَادَةُ) ٥٧
- ٦ - نَقْدُ الذَّاتِ ٦١
- ٧ - تَقْوَى اللَّهِ ٦٩
- ٨ - الرُّضُوحُ لِلْحَقِّ وَالْإِدْعَانُ لَهُ ٧٥
- * خَاتِمَةٌ ٨٣
- * المراجع ٨٩

* * *

كتب للمؤلف

● نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد .

هذا الكتاب سلاح لمقاومة ما نتعرض له من غزو فكري ووجداني وحضاري ...
ودرع واقٍ يقف في وجه التيار الجارف للمذاهب الأدبية المنبثقة عن نظرة أصحابها إلى الإنسان
وما حوله ...

لقد عرض المؤلف - رحمه الله - أهم المذاهب الأدبية وموقف الإسلام منها ، وموقف الإسلام
من الأدب عامة ومن الشعر خاصة ، والخصائص العامة لهذا المذهب الأدبي الذي نسعى له . بتحليله
العلمي الدقيق ، ومعلوماته الموسوعية الشاملة النابعة من الكتاب والسنة ، وبأسلوبه الأدبي المميز .
وقد خلص المؤلف - رحمه الله - إلى رسم منهج لمذهب إسلامي في الأدب والنقد يُبَيِّن لنا
وضع المعايير والمقاييس ؛ لمعرفة الغث من الطيب .

● صور من حياة التابعين .

يعرض صوراً واقعية مشرقة من حياة مجموعة من أعلام التابعين الذين عاشوا قريباً من عصر
النبوة وفي كنف صحابة رسول الله ﷺ ، فإذا هم صورة لصحابة رسول الله ﷺ في رُشوخ الإيمان ،
والتعالي عن عرض الدنيا ، والتفاني في مرضاة الله ...
وقد كانوا قاعدةً للدعوة إلى الله عز وجل تضرب في فجاج الأرض مُشْرِقة مُغَرِّمة تحمل للبشرية
العقيدة البانية ، وتمد إليها اليد المصلحة الحانية ، وتنتشر في رُبوعها الشرعة الحقة .
وقد قسّمهم علماء الحديث إلى طبقات : أولهم من لحق العشرة المبشرين بالجنة ، وآخرهم من
لقي صغار الصحابة ؛ أو من تأخرت وفاتهم .

● حدث في رمضان .

في شهر رمضان سعد هذا الكوكب الأرضي بأعظم حادث وقع على ظهره ؛ فكان هذا
الحادث فرقاناً في تاريخ البشرية كلها ، وإلهاناً بمولد عالم جديد ...
وشهد فيه العالم الإسلامي أياماً متنوعة ... منها الحزينة التي لا تذهب الأيام بمرارتها ...
وأياماً أعر الله فيها المسلمين من هوان ، وقواهم من ضعف ، وأعلى في هذا الشهر الكريم رايات
الإسلام ، ورفع في أيامه أعلام القرآن ... فحُبذا رمضان ، وحُبذا أيامه الغر الميامين .

● صور من حياة الصحابة .

يعرض صوراً من حياة مجموعة من نجوم الهداية التي نشأت في أحضان المدرسة المحمدية ؛ بأسلوب جمع بين البلاغة الأدبية ، والحقيقة التاريخية ...
فيجد طالب الأسلوب الإنشائي في هذا الكتاب بغيته ، وناشد الفن القصصي طُلُبَتَهُ ، والساعي إلى التأسي بالكرام ما يرضيه ويغنيه ، والباحث عن الحقيقة التاريخية ما يغني بغرضه .

● الدين القيم .

أثار قضية من أهم القضايا المؤثرة في حياة البشرية ألا وهي المنهاج الذي يرسم الطريق لجوانب حياتها ، ويوائم متطلبات جسدها ونوازع روحها ... وأن الإنسان بأهوائه وعلمه وعقله عاجز كل العجز عَنِ أن يضع هذا المنهاج الشامل الذي يصلح للبشرية كلها في سائر أجيالها ...
وقد حسم المؤلف - رحمه الله - هذه القضية بأن هذا المنهاج هو الدين بمنطق لا يحتمل الجدل .
وقد تطرق هذا الكتاب إلى أهم العلاقات الإنسانية المؤثرة في أي مجتمع كان ، والتي نظمها الإسلام منذ أربعة عشر قرناً ...
ويُتَبَيَّنُ الفارق العظيم بين مدينة الإسلام التي فاضت بالخير والبر حتى بلغت ترفاً وتيناً مبادئ الحضارة الغربية التي لا ينعم بها الملونون الغريون أنفسهم ...

● صور من حياة الصحابيات .

هذا الكتاب يجوب بنا في رحاب حياة المرأة المسلمة التي عاشت في كنف الرسول الكريم ﷺ من خلال صور متعددة تعبر عن المنهج الإسلامي القويم الذي وضع الأسس لحقوق المرأة وواجباتها ...
فَتَحَتَّ يَلُوكَ ما بايع عليه الرجال ، ورسمت أسمى معاني البذل والعطاء وهي مهاجرة إلى ديار الغربة مخلفة وراءها بيتها الباذخ ؛ وعزها الشامخ محتسبة ذلك كله في الله وابتغاء مرضاته .

ولم تقتصر خصائص المرأة المسلمة عَنِ أنها مؤمنة راسخة الإيمان ، وزوجاً وأماً من الطراز الأول ، ربت فأحكمت وأصبحت فاحتسبت ... بل كانت فوق ذلك كله مجاهدة في سبيل الله فخاضت المعارك وضمدت الجراح ، وحملت الزاد وأصلحت السهام ، وسكبت الماء في حلق العطاش وهم يجودون بنفوسهم في سبيل الله ...
إنها حياة المرأة المسلمة بكل ما فيها من سمو وفخار .

• أرض البطولات .

قصة من قصص كفاح أمتنا كتبها شعبنا المؤمن بشفرات السيوف ، وخبرها بزكي الدماء ضد المستعمر الفرنسي ...

ليس فيها من خيال القاص إلا ما يربط بين الوقائع ، ولا من خلق الكاتب إلا ما تستدعيه طبيعة العمل القصصي لتصوير الأحداث ...

فرمنها هو ربع القرن الذي أعقب الحرب العالمية الأولى ، ومكانها هو تلك الربوع الشامية ، وأشخاصها مواطنون معروفون .

وقد كُتبت هذه القصة بلغة فصيحى ليكون في ذلك بلاغ لأولئك الذين يشيخون بين الناس أن هذا الفن من القول لا يسلس إلا للعامة ، ولا يؤدّى إلا بها .

هذا الكتاب

محاولة واعية جادة لإبراز جلال معنى البطولة وسمو قيمتها ،
تبدأ بالنظرة اللغوية لتنتقل إلى النظرة الموسوعية .

لقد حدد المؤلف - رحمه الله - للبطولة إطاراً ؛ أبرز من خلاله
أهم معالمها والبواعث التي تبعث عليها ... وضرب لكل باعث
منها قصةً من تاريخنا الثري الغني .

وما أحوجنا في هذا الظرف إلى القدوة البطل ، ولأن نتأسى
بسير أبطال الدعوة الإسلامية منذ الأيام الأولى التي بزغ فيها
فجر الدعوة المحمدية ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .
إن هذا العمل الذي بين أيدينا قدوة ... قدوة في سلامة الفكر ،
واستقامة القصد ، ونبل الغاية ، وصفاء اللغة ، وإيجاز العبارة ،
ووضوح التعبير .

الناشر